البشـــروش

السيد الخميسي

الجزء الأول
١٩٩٧

الغلاف والرسوم الداخلية للفنان

عباس الطرابيلي

الإهداء

ooooooooooooooooooooo

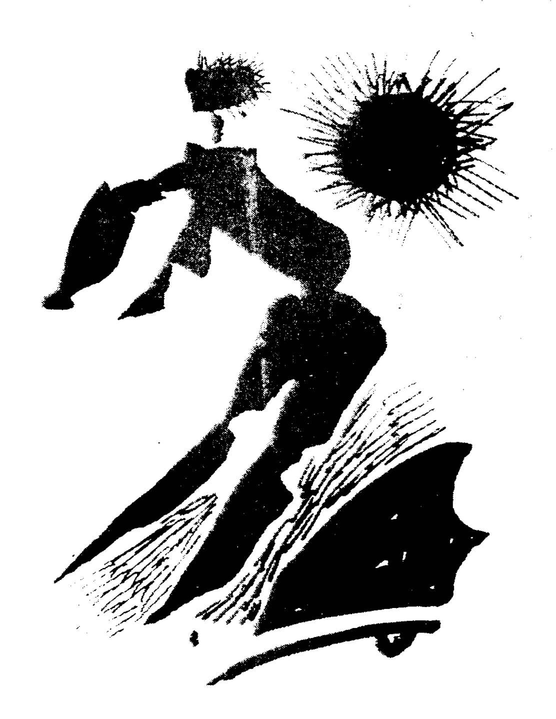
إلى ولـــــــــدى

محمد

روح الروح



الوطن الجميل



١

-ابنك ذكى يا محمد.

- سأعلمه وسيدخل الجامعة .

يضع كمية كبيرة من صفار البيض فى طاسة مع قطعة كبيرة من السمن البلدى .

- كل يا ولدى كل ، لابد للرجال أن يأكلوا جيداً .

يبسط بقايا الدقيق على طاولة العمل الرخامية يكتب بإصبعه ....

قل ورائى : ألف ، باء ، جيم .

صورة الخواجة فى صدر المحل تحتها فاترينة تمتد طولياً فى المنتصف تماماً فيها أصناف الجاتوة وعلى الأرفف زجاجات بأحجام مختلفة وأشكال جميلة مرصوصة بعناية بجانب علب الشيكولاتة الفاخرة .

- لماذا أنت عنيد هكذا يا محمد؟

- أنت وعدتنى أن تبيعنى المحل .

- نعم سأبيعك نصف المحل والنصف الآخر لأنطونيو .

- لا يا خواجة جورجى لم يكن هذا إتفاقنا، خمس عشرة سنة وأنا أبنى هذا المحل ، سنة وراء سنة وأنت تقول لى عندما يجىء اليوم الذى أترك فيه مصر هذا المحل لك

- صدقنى يا محمد [انت أسطى حلوانى كويس] لكن إدارة المحل شىء آخر.

ولولا إصرار ابنى ميشيل على السفر ما تركت مصر .. ما الذى فعله بكم جمال عبد الناصر ؟!

٢

قال أبوه :
- إبق معى وسأحضر لك حصاناً من الشيكولاته.
- سأذهب مع أمى .
. تلك المركب مملوكة لأحد أخواله تنقل إلى البلدة الرمل الأصفر وأحجار البناء الحمراء وبعض المسافرين ، يملأ الهواء القلوع ، تنساب برشاقة مائلة على جانبها الأيسر ، صوت الارتطام على الجانب الأيمن المرتفع ورشاش الماء المندهم يدغدغ الحواس ، يرفض أن يبقى فى **الخن**[٢] أسفل السفينة تسلمه أمه لأخيها يمرح على سطح المركب المحدّب الخطر ، يتعلق بالحبال ينبطح على الخشب **المياط** [٢] الذى حال لون دهانه القديم ، يقبض الماء الذى يفر من يديه مخلفاً تلك الكهرباء الساحرة فى أصابعه وروحه .
- حاسب عروسة البحر تسحبك من يدك وتغوص بك عند أهلها ولا تعود ....
.... يحب هذا الخال المراكبى ، كثيراً ما يذهب فى الليل وحده إلى **المردة**[٣] عند المدخنة الطويلة ينتظر العون الذى وصفه الخال . لماذا لا يظهر ؟

١-الخن : مخزن صغير فى قاع المركب عند المؤخرة خاص بالمراكبى .
٢-المياط : المبلل الزلق .
٣-المردة : مرسى المراكب القديم .

.... تسحبه الجنيّة من يده وتغوص به إلى القاع ، عالم ملىء بالدلافين المقهقهة وحوريات البحر تلمع زعانفهن وذيولهن فى الضوء الأزرق والفضى ، أصداف مذهبة وقواقع من نور.

يطأ سمكة بنية لزجة .. حصان الشيكولاته الذى احتضنه ونام تحول إلى فطيرة بنية لزجة

صوت أبيه وهو يحمله على يديه يعلمه السباحة فى الماء الرائق المنعش ....

– اسمع كلامى ابق معى أحسن لك .

... يقف الهواء تماماً المركب التى تمخر الماء جذلة مجلجلة أصابها الشلل ، فجأة تقف عاجزة كصخرة ميتة ، انكفأ صدرها فى الماء مثل طائر قتيل

ينزل الرجال إلى الأرض القريبة يجرونها باللبان

هيلا ليصا

هيلا

هيلا ليصا

هيلا

صوتهم شجى وعميق وحزين .

على رأس المركب يقف الخال، طويل مثل إله فرعونى مهيب ، فى يده مدراة طويلة يتحسس بها القاع الذى يحفظ تضاريسه تماماً، يتخذ لمركبه طريقاً آمنة وسط تلك المياه الضحلة القريبة من الشاطىء .

عضلاته التى تلمع فى ضوء القمر أشد صلابة من المدراة
التى فى يده
- الهمه يا رجاله

هيلا ليصا
هيلا
هيلا ليصا
هيلا .

٣

شىء ساحر هذا الخط المزبد بين الماء الضحل واليابسة يحيط بالمدينة كقلادة من الأصداف البيضاء الناصعة تتخللها بقع خضراء داكنة ، طحالب بحرية تتحرك مع حركة المياة قدوماً وإياباً .

خارج المدينة الأرض بيضاء مشوبة بالإحمرار بينها أخاديد من الطين الأسود المشقق من حرارة الشمس .

يقفز فوق جزر الملح الأبيض برشاقة الطائر البحرى ، البقعة التى تميل إلى الإحمرار فخ مميت ، بركة ملحية لم يكتمل جفافها ، ملح يغلى ، قطعة من جهنم الحمراء

يضع قدمية فى ماء البحيرة إحساس بالنشوة والتعادل ، ينسرب الماء بين خلاياه وروحه .

تنفتح مسامه لهذا الخدر الكونى الآسر ، يخرج غابة الصيدمن المخبأ السرى ، ينتزع الديدان البحرية الملساء من كتلة الطين المبللة .

قال عمه : هذه الديدان تلحس الجلد تمحو بصمات الأصابع ، ما فائدة بصمات الأصابع ؟ السمك ألذ .

يعرف نوع السمكة من رعشتها فى الماء .

القاروص هذه السمكة الملكية تأكل بأطراف شفتيها لا تشعر إلا وهى معلقة تتلوى بوقار وانسيابية ،

الدينيس والشبار والوقار أسماك فتاكة تهجم على الطعم فى افتراس محدثة جلبة وصخباً شديداً عند خروجها من الماء .

يخلع ملابسه يضع فوقها الطاقية الخوص العريضة

التى تشبه طواقى المكسيكيين ، يلقى بنفسه فى هذا الحوض الخاص المقدس الذى يمتد إلى آخر مرمى البصر

****

الجنة هى هذا الوطن الجميل .

٤

يحب هذا الشاطىء الجنوبى .

هل هى الوحدة المطلقة مع الكون ؟ فلا بشر سوى هذا الماء الرقراق وهذه القلوع التى تبدو على البعد وكأنها تلك المراكب الورقية التى يطلقها فى الماء ثم يتتبعها بعينيه إلى أن تغيب .

أم لأنه يشعر بدقات قلب هذا الوطن الممتد خلف هذا الشط لأكثر من ألف كيلو متر كما يقول أستاذ الجغرافيا وإلى آلاف السنين كما يقول أستاذ التاريخ ،

صحيح إنه لم يذهب لأبعد من تلك القرى القريبة والجزر المتناثرة فى البحيرة (ابن سلام) الذى يذهب فى مولده كثير من أهل المدينة - رجالاً ونساءً - يمارسون عنده طقس الانطلاق (النسايمة) مسقط رأس جده لأمه - هذه (المراحات) التى يراها خالية تماماً ويقول خاله إنها تأوى المطاريد والهاربين من الحكومة (تنيس) المدينة الغارقة فى الماء وفى الأساطير .

- تقول أمى إنك مجنون وستخبر أبى لو رأتنى معك .

- لماذا تأتى معى إذن ؟

- أريد أن أرى الشاطىء الجنوبى .

- ضع قدمك فوق موضع أقدامى ... وكن على حذر .

ينطلق الصديق صارخاً يجوس فى الأماكن الملحية المشتعلة ، يجرى وراء صديقه ، يحمله على كتفيه ، تنغرس القدمان فى الجحيم ، لا يستطيع القفز

برشاقة الطائر البحرى .
تصعد ألسنة النار إلى رأسه ، يكتم صرخة هائلة ترتد إلى فضائه الداخلى ، يغرس قدميه بشدة وينسى كل شىء ، فقط يضع نظره فى الشاطىء الجنوبى ، يقترب خطوة .. خطوتين ، أين هذا الألم الخرافى ؟؟

قدماه قطعتان من الخشب المدمّى ، يجلس فى الماء ينظر إلى دمه النازف من قدميه اللتين شرحتهما القواقع الطينية الملحة ، يخرج الدم قانياً ثم يختلط بالماء الرائق فيصبح وردياً تتدرج خطوطه فى الخفة حتى تتلاشى .

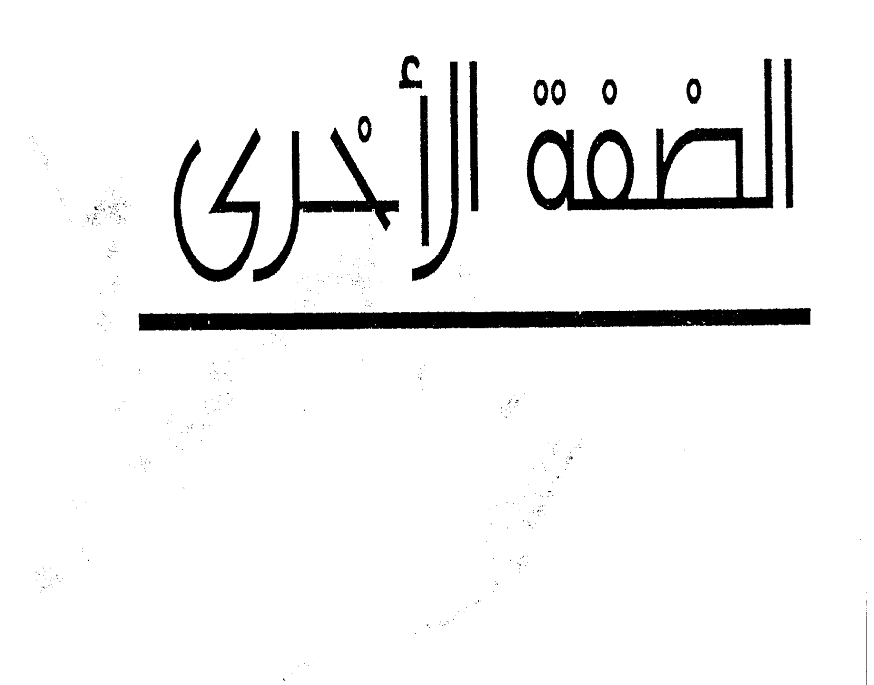
صوت خاله المراكبى : ماء البحيرة ترياق يشفى كل الجروح .

قال صاحبه : إنها الأرض الملعونة ، لن أمشى معك بعد اليوم .

قالت الأم : اذهب واغتسل قبل أن يراك أبوك .


عباس





الضفة الأخرى



٥

يطأ القواقع البيضاء على الشاطىء الرملى ، يرتاح لصوت انفقاعها تحت حذائه الجلدى الخشن ، يتتبع آثار الكابوريا البرية فى خطوطها العنكبوتية المتقاطعة المنتهية دائماً إلى فوهة حفرة رملية ناتئة شبيهة بفوهة بركان صغير نفس الخطوط التى تغزلها أمه على طرف الستائر قبل أن تعلقها فوق شبابيك البيت لم يستطع أن يفهم ما تفعله هذه الإبرة الحديدية الكبيرة المعقوفة عند الرأس كمخلب صغير.

ينظر إلى الماء المنسحب تحت قدميه بعد انكسار الموجة المخاتله يشعر بدوار من يركب (الساقية القلابة) وهى تنحدر لأسفل هل الماء هو الذى يتحرك ؟ أم هى الأرض التى تميد ؟

يطلق بصره إلى خط تلامس الماء مع السماء هذا الفراغ المخيف الذى يفصل بيننا وبينهم ، ما لهم وما لنا سكان هذه الضفة الأخرى ، ليت هذا البحر لا ينتهى إلى أرض ، ليته ماء بلا حدود ، الخواجة جورجى أتى من وراء هذا البحر ، ومن ورائه أيضاً هذه الخفافيش السوداء التى فى السماء .

طائرات صغيرة جداً على ارتفاع شاهق ، يتتبع ذيل الطائرة الدخانى الأبيض الممتد مثل أفعى طويلة ينقطع أحياناً ثم يعاود الإتصال ، يبدأ من نقطة صغيرة لا تكاد تبين رفيعاً وحاداً ومستقيماً فى المقدمة ثم يأخذ فى

التعرج والإنتشار.
قبضة أبيه القوية تعتصر معصمه الصغير ، يصيح الخال غاضباً أخرتنا يا ولد ، أين كنت ؟

مزدحمة المركب هذه المرة ، الماء قريب جداً من سطحها العلوى ، وجوه كثيرة من العائلة وأيضاً ناس كثيرون لا أعرفهم ، رغم امتلاء القلوع تتحرك ببطء شديد .

أمام الطابية الغربية عند نقطة التقاء الشاطىء الجنوبى وصدر البحيرة الفسيح يقفز العم إلى الماء ، وراءه يقفز الأب .

إنها الجنية التى سحبتنى إلى الماء الذى بدا فى تلك اللحظة داكناً وعميقاً .

يصيح الخال اطمئن يا محمد الأولاد فى عينى ، الأرض بعيدة هذه المرة .

- استرح قليلاً يابنى ضع يدك فوق كتفى .
- اطمئن يا أبى هذا الشاطىء بيتى وهذا الماء مائى .

يقفز على الشاطىء الملحى برشاقة الطائر البحرى يقود الأب والعم إلى المواضع الملحية الآمنة .

٦

بداية شارع كسرى من تقاطع شارع الأمين ، أول مرة يرى شارعاً بلا ناس .

فى حصة الرسم قال للأستاذ : كيف أرسم شارعاً ؟! الشارع كبير والورقة صغيرة .

اللوحة الفائزة التى علقها الأستاذ فى الفصل حيطان مصمتة لبيوت عالية فى الصدر ثم يختنق الشارع حتى يشبه نفقاً مظلماً.

عرف الآن أن الشوارع الخالية فقط هى التى تصلح للرسم ، تستطيع أن ترسمها على ورقة صغيرة ، وتستطيع أيضاً أن تقطعها فى خطوتين .

عرف الآن لماذا لا يحب حصة الرسم .

******

سرنا فى الشارع الميت حتى وصلنا لتقاطع شارع كسرى مع شارع بنى سويف ، يفتح الأب أبواب محله الجديد - تسلمه أبى من هنا ولم تلبث أن قامت الحرب - وسط الدخان والظلام يظهر عم قلفوط صاحب القهوة معه عم حلمى الحلاق .

- كيف حال الناس فى المطرية ؟

نظر أبى إلى عمى وقال : لم نسافر إلى المطرية .

- والأولاد ؟!

- سافروا مع خالهم .

- كنا نظن أن معكم (عيش فلاحى وطعام) .

- نحن لم نغادر المدينة كما ترى .

يذهب عم قلفوط يحضر خبزاً جافاً وقطعة من الجبن وأكواب الشاى .

- الشباب طلعوا الجميل .
- منذ الصباح والسيارات العسكرية توزع السلاح على الناس .

يضع العم كوب الشاى ويقوم .

- إلى أين ؟
- إلى الجميل .
- ليس معك سلاح .
- سأتصرف .

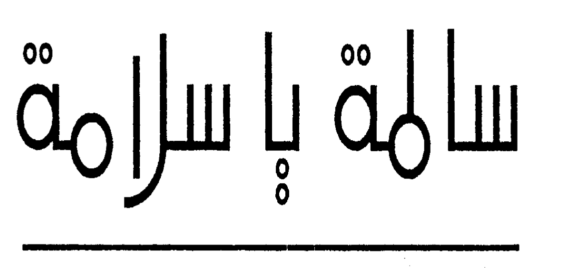
صوت عبد الناصر فى الراديو << سنقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا >> .

ينظر أبى إلىّ يضع كفه الكبيرة فوق كتفى .

ما أرق هذه الكف الكبيرة القوية ..






سلامة يا سلامة



يخرج الضفادع الميتة المنتفخة ويبكى . وضعها كمونة فى حوض الغسيل الكبير المبنى من الطوب تحت حنفية المياه الضخمة فى فناء مدرسة أجا الإبتدائية .

- لماذا يفعل ذلك يا أمى؟

- مسكين كمونة قلبه غير رحيم .

استقبلنا الفلاحون أولاً بالطعام والعطف ، يتسابقون فى إكرامنا وإنزالنا من السيارات الضخمة التى أتت بنا من المطرية ، مع الوقت لم نعد ضيوفاً صرنا مهاجرين ، كلمة جديدة فى قاموس الشعب المصرى . ذكرتنا بكلمة لاجئين التى نسمعها فتثير فى نفوسنا مشاعر الشفقة على إخواننا الفلسطينيين آه من هذه الشفقة القاسية .

ظل الفلاحون ينظرون إلينا باندهاش وحذر عاداتنا لها طعم البحر . كما أننا لم نتقبل بسهولة هذه الحياة الريفية التى تنام من المغرب .

جاءنا أبى مصاباً بشلل فى وجهه يغطيه بتلفيعة كبيرة حتى لا نرى فمه المشدود جهة اليسار .

أصبح عمى عصبياً كثرت احتكاكاته بشباب الفلاحين ، نذهب يومياً أنا وهو إلى المنصورة لعمل جلسات الكهرباء على وجه أبى لم أفهم كيف تشفى الكهرباء الوجه المشلول ؟ ، نركب قطار الدلتا الصغير البطىء الذى يشبه اللعبة يتهادى وسط الحقول

الخضراء وعلى كوبرى أجا الرفيع الذى رأيت المياه وقد جفت تحته والفلاحون يقبضون الأسماك الحية من الطين الرائب بأيديهم ورأيتهم ينتقلون بين الضفتين البعيدتين على أرجلهم خائضين فى الطين الأسود، تعجبت يومها كيف أصبح الكوبرى بعيداً جداً ومرتفعاً.
- رأيت أيضاً الماء البنى يتدفق فى دوامات عكرة مسرعاً ومحتدماً وله هدير يشبه هدير بحرنا فى يوم هائج .

أسير على الحافة أتعلق بهذه الأشجار التى ترسل أحبالها إلى الماء ، أقذف ثمارها التى تشبه قرون الخروب الكبيرة ، لم تعد هناك قرون فى متناول الشاطىء ، القرون الكبيرة وحدها بعيدة ومتحدية ، أضربها فتسقط فى الماء المندفع الغاضب ، أتتبعها إلى أن تقترب من الشاطىء أحاول إنتشالها بأطراف أصابعى أنجح قليلاً وأفشل كثيراً .

أجد عمى جالساً تحت شجرة ينظر إلى الماء وهو شارد ، يجدنى بجانبه يرسم لى **الضامه** فى الأرض الرملية المنبسطة يعلمنى كما كان يفعل على رمل بورسعيد يراقب عن بعد بناتنا عصراً وهن متجمعات تحت الأشجار قريباً من الماء ومن باب المدرسة يحكى لى

قصص بور سعيد كيف اختطف الفدائيون **مورهاوس** ، وكيف فجر **عسران ويليامز**.
فى الليل أرى نفسى راكباً دراجتنا الرالى السوداء الكبيرة مستدرجاً مورهاوس إلى كمين الفدائيين .-

****

ليتنا لم نهاجر.

٨

- عجيبة ذاكرة الأطفال ، أتذكر حادثتين كأنهما حدثتا بالأمس فقط الأولى : عندما حاولت أن أمسك القرن الكبير قبل أن يفلت إلى المنطقة التى لا أطوله بعدها ، زلقت قدمى بكومة القش الذى وقفت عليه كاد الماء الهادر أن يأخذنى فى دواماته الغاضبة وأنا متشبث بالطين انزلق قطعة فقطعة ، أنفلت إصبعاً فإصبعاً ، لولا أن ساقت الأقدار عمى ، أنا مدين بحياتى لهذا العم الجميل الفارع الطول بجسمه الهرقلى وعينيه الواسعتين وحاجبيه المرفوعين إلى أعلى فى اندهاش واعتزاز وثقة وأنفه الصغير الحاد كرأس حربه من الذهب وحيائه واحمرار وجهه إذا أطالت الفتيات النظر إليه ، كل فتيات القرية كن يطلن النظر إليه ، كل شباب القرية يتحرشون به ومنهم من يعلم حياءه ومروءته .

الثانية : لا أتذكر ما الذى أصابنى بالجنون فتسلقت مواسير المدرسة حتى اقتربت من سطوحها ووضعت يدى فى عش للدبابير فى أعلاها تلسعنى الدبابير وأنا أهبط مسرعاً لو تركت يدى لسقط ميتاً لا محالة عند منتصف المسافة تقريباً أسقط ، بقيت فترة طويلة على الأرض لا أقدر على الحركة حتى أتى من رآنى ظن الجميع أننى هالك ، أفيق من الحمى أجد الحارس العجوز على رأسى نزع أطراف الدبابير العالقة بجسمى

غطى الجروح بالطين وانتظر قال هذا هو العلاج الوحيد ،يتعجب لكثرة الإبر العالقة بلحمى الوحيد الذى عرف السبب هو عمى أخبرته عندما جاء ولم يخبر أحداً .

إلى المنصورة أذهب مع أبى وحدى فى الأيام التى يختفى فيها عمى ثم يعود مغبراً وهزيلاً .

- أين كنت ؟

- فى بورسعيد.

- كيف دخلت ؟ وكيف خرجت ؟

- ربنا سلم .

فى كل مرة كان يقول ذلك ولايزيد .

قالت أمى لأبى:

- امنعه يا رجل سيموت .

قال أبى : دعيه فى حاله ، سيموت إن بقى هنا .

كانا يعرفان أنه يرافق الفدائيين فى دخولهم وخروجهم من المدينة .

٩

فى الأيام القليلة التى يقضيها عمى فى أجا أستيقظ معه فى الفجر نجرى سوياً بمحازاة الطريق عدة كيلو مترات .

يقول لى : الجرى فى الصباح قوة للروح والجسم وإطالة للنفس ، أعود وفى قلبى وعقلى أحاديث عمى ، أعود دائماً وفى جيبى حبات خضراء طازجة مما تنتج الأرض ألتقطها من الطريق يبدو أنها تسقط من أحمال الفلاحين عند النقل .

- هذه بشاير أنت مرزوق يابنى وطريقك أخضر يقول حارس المدرسة العجوز وأنا أدفع إليه بعض ما أجد يتأمله فى سعادة قبل أن يمسحه فى ثوبه ويضعه فى فمه قليل الأسنان

قلت له أريد أن أركب حماراً، فى اليوم التالى أتى بحمار وضعنى فوقه وتركنى ، بعد أن انفلت الزمام وانطلق الحمار يفتح العجوز فمه قليل الأسنان ويضحك حتى ابتل شاربه بالدموع وأنا أصرخ والحمار يقفز فى الأرض الزراعية عابراً هذه الجذوع فوق مجارى المياة وجائساً فى الأرض المخططة حتى وصل إلى بيت أهله .

- وأنا عائد مع عمى والعجوز رأيت الساقية فى دورانها البطىء أسمع صوت احتكاك الخشب العجوز الثقيل الذى يشبه الأنين ، أتأمل الحيوان الصابر وهو يدور ويدور .

- لماذا تحجبون عينيه ؟ حرام عليكم .
- يقول العجوز وقد غرغرت عيناه : الأرض غالية يا بنى ربنا يرجعكم لأرضكم بالسلامة .
عجباً أليست مصر كلها أرضنا ؟ لماذا إذن نشتاق لتلك الأرض المالحة المشققة كل هذا الشوق ؟

****

أحمل فانوساً صغيراً أخرج إلى الحقل القريب أريد الهواء ، مزق الباعوض جلدى ، ليل الريف أسود ثقيل ، الأرض نائمة ، الأشجار نائمة ، لايصحو فى ليل الريف سوى الضفادع المسكينة وهذا البعوض المتوحش .
سماء الريف مظلمة ليس فيها نجوم ولا قمر .
تحتبس الصرخة فى حلقه قليلاً قبل أن تخرج منشرخة مثل سهم أفلت وتره .
- لماذا عيون الكلاب هنا مخيفة هكذا يا أمى ؟
- حمداً لله على سلامتك ، إنه ذئب .
- ذئب ؟!
- لماذا خلق الله هذه المخلوقات المتوحشة فى صورة الكلاب ؟!

١٠

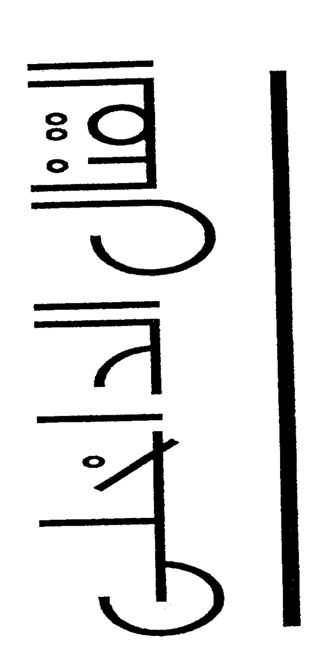
عايرنا الفلاحون أننا أغلينا عليهم المش .
طابور السيارات العائد المبتهج يغنى :
مع السلامة يا مهاجرين قاسيتوا ياما م الفلاحين
غنينا أيضاً رائعة سيد درويش :
ساله يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة
تبلل الدموع شارب الحارس العجوز.
شباب الفلاحين يتناوبون احتضان عمى لحظة الوداع ، العواطف صادقة والدموع حقيقية
على دراجتنا الرالى السوداء الكبيرة يطوف بى أبى شوارع المدينة ، الخراب فى كل مكان ، رائحة الحريق لا تزال عالقة فى الهواء ، أنقاض تسلم إلى أنقاض لا أثر لحى المناخ فقد أكلت النار البيوت الخشبية الفقيرة ، شارع عبادى تهدم كله تحت قصف القنابل ، كبائن الشاطىء الخشبية لم يبق منها سوى هذه القوائم المحترقة المتشبثة بالأرض .
فى حى الإفرنج صور ناصر على كل الأعمدة ، (DAWIN Eden) بخط كبير على أرضية الشوارع ، قاعدة تمثال ديليسبس خالية ، لقد رفعوا العلم البريطانى فى يد التمثال المبسوطة كان لابد من قطع تلك اليد الإستعمارية .
هنا وقف جمال عبد الناصر قبّل العلم المصرى ورفعه فوق تلك السارية التى نزل من فوقها العلم البريطانى هنا فجر **عسران وليامز** ، فى هذا البيت خبأ الفدائيون

مورهاوس ، دفنوه فى بئر السلم بعد موته .
لقد وضعنا أنفهم فى التراب يا بنى .
- لماذا يكرهنا الإنجليز يا أبى ؟
- من نارهم يا بنى ، ظنوا أنهم يستعبدوننا إلى الأبد .
لا أريد أن نهاجر مرة أخرى يا أبى .

*****

فوق سطوح بيتنا برج الحمام محترق ومهدم ، قال الجيران قلنا لأخيك اذبح الحمام حتى لا تحترق المنطقة
نرى الحمامة قادمة والنار ممسكة بها تهبط إلى البرج مثل قذيفة مشتعلة ، كنا نقبض على الواحدة بصعوبة شديدة .
العجيب أن عمى لم يأكل من حمامنا طيلة الحرب قال كان يفزع من الناس ولا يأمن إلا لى وحدى صدقونى لم أستطع .
وكنت أصدقه .







١١

ولدت في الشهر الذى ولد فيه الملك فاروق قبل عام من نكبة فلسطين، قالوا: ماذا تريدأن تكون؟ قلت : أريد أن أصبح ملكاً . وجاء جمال عبد الناصر خلع الملك وجعل كل المصريين ملوكاً، (ارفع رأسك يا أخى - إلغاء الألقاب - إلغاء الإمتيازات الأجنبية - الوطن للجميع الفقير مثل الغنى لابد أن أفرح بالثورة وأنا الفقير بن الفقير ورأيت بعينى ما فعل الخواجة جورجى بأبى ..

، وسمعت قصص الإقطاع مع الفلاحين ، وقصص جنود الإحتلال فى منطقة القناة وقرأت <زقاق المدق>وشاهدت فيلم الأرض، وغنيت مع الكبار فى الضمة :

ولا عادش باشا ولاعاد بيه
واللى عملها راحت عليه
إيدن وين جوريون ومولية
جايين يحاربونا على إيه
هو الكنال ده فى أراضيهم
واللا احنا خدناه منيهم
دى قنبلة وضربت فيهم
واللى ضربها رئيسنا جمال
مبروك يا جمال

إنها فرحة الحرية ، أنا الفقير بن الفقير أصبحت مالكاً لوطن رائع أرضه ومائه وسمائه .

****

فى موسم السمان كثيراً ما أعود إلى البيت وفى يدى سمانه ، أجدها دائماً قريبة من يدى لو أن الحارس العجوز هنا ليأكل من سماننا اللذيذ ! .

أذهب إلى المدرسة مبكراً ، تسقط **المليحة** مجهدة أمامى بأقدامها الطويلة ورأسها الصغير الذى يشبه رأس الدجاجة .

- لقد شنقت نفسها يا عمى مدت أصابعها الطويلة ، قبضت على الرقبة واستسلمت فى سكون .

- إنها الحرية يا بنى أثمن ما فى الوجود .

علمنى عمى كيف أريح الطير بالسلاح أو بالريش ، أنزع ريشة جافة من الجناح أرشقها فى الرقبة تحت العرقين الصاعدين إلى الرأس وأجذب مرة واحدة فيندفق الدم الساخن .

حدثنى عن النسر الذى يصعد فى السماء ثم يهوى إلى الأرض كالحجر .

الطير أيضاً يرى الفرق بين موت الحياة وحياة الموت .

لسنا وحدنا من نملك القدرة على الاختيار .

ربما لهذا السبب لم أصوب نحو هدهد فى حياتى ، قال زوج عمتى كان ملكاً قبل أن يغتر ويحوله الله إلى هيئة الطير .

أنظر إليه وهو يحرك رأسه المتوج فى كل الاتجاهات يخبط الهواء بجناحيه الكبيرين خبطتين سريعتين ثم يطير قريباً من الأرض مسافة قصيرة قبل أن يقف فجأة محدثاً ما يشبه الفرملة ... ما زال الغرور فى دمه .

١٢

يقبض على البطة من رقبتها ، يطوحها على ظهره ويصعد السلالم فى خيلاء ثم يضعها أمام الباب فى زهو المنتصر رافعاً ذيله مثل راية .

- قالت الأم : إما أنت أو الكلب فى البيت ،

هذا الكلب البلدى أصفر اللون فيه بقع بيضاء فى آخر الذيل وعلى إحدى أذنيه وفى الصدر يقاتل بشراسة حتى أصبح مشهوراً فى المنطقة ، ازداد أطفال الشارع احتراماً وابتعاداً..

المنطقة الجافة من البحيرة القريبة من البلدة مقسمة إلى أحواض واسعة ، مستنداً إلى ردم ممتد فى خط مستقيم يتقاطع مع خط الأفق ، يضع قبعته الخوص العريضة فوق وجهه ينظر من تحتها إلى كلبه الذى يتقافز حوله فى توتر قلق ، يلعق وجهه ثم قدميه ثم ينصرف إلى مطاردة خنفساء سوداء كبيرة ، هبطت الشمس وهو مستغرق فى التفكير..

إلى أين يذهب بهذا الكلب الذى جلس منتصباً مثل أسد ناظراً فى عينيه متحفزاً ، مائلاً برأسه جهة اليسار قليلاً منتظراً أول بادرة حتى يبدأ اللعب والمصارعة.

ينصرف مرة أخرى إلى الجرى المنفرد والدوران السريع والانقضاض الوهمى بعد أن يئس من مشاركة صاحبه ، إلى أين يذهب ؟

صوت أبيه مختلطاً بأصوات أخرى يعرفها .
- هات الولد، أين الكلب ؟ ، أين الكلب ؟
- الأمر لله وحده .

****

كلب غريب أسود ضخم من نوع **الوولف** ، أجذب كلبى بعنف أضربه بعصبية زائدة حتى يستجيب .

أذهب إلى شاطىء البحيرة الجنوبى ، لم أعد أنام جيداً ، كوابيس مرعبة وإحساس بالمهانة .

لم يستجب لندائى هذه المرة هجم بسرعة خاطفة على الكلب الدخيل ، غبار مثار وأصوات وحشية وقتال حتى الموت .

ألقيت بجسمى بين الوحشين ، أنقذت كلبى من هلاك أكيد ، هل أنقذته فعلاً ؟؟

- لم يعد ينظر فى عينى ، كثر شروده ، قل طعامه ، أصبح مغلفاً بالحزن .

يحاول أبى أن يخفى دمعه وأنا أسوى التراب على صديقى ، لماذا تحجرت الدموع فى عينى ؟

- إبك يا ولدى إبك .
- جاء البكاء متأخراً ، جاء طوفاناً من الدمع والدم .

١٣

يختلف الماء فى القنال الداخلى عن ماء البحر وأيضاً عن ماء البحيرة فهو إصبع مائى يمتد فى جوف المدينة من جهة الجنوب ، تكتمل به دائرة الماء حولها .

قمت بتصميم عدّة تشبه عدة صيد الخلول إلا أن يدها أكثر طولاً حتى أتمكن من اصطياد البكلويز الأسود والأحمر الكبير من قاعة المنحدرة إلى العمق عند نقطة التقائه بماء البحيرة من جهة الهويس غرباً وبماء قناة السويس المتسلل له من تحت كوبرى الرسوة الشهير شرقاً هذا الكوبرى كثيراً ما وقفت عليه وقت المد أو الجزر ، أرمى خيطى المتلىء بالسنانير الخالية فى الماء بعد أن أربط فى نهايته (ثقل) الرصاص أجذبه بعنف وبعكس اتجاه الماء تعلق السمكة من الرأس وأحياناً من البطن أو الذيل .

وجدت فيه الصدفات النادرة الجميلة جداً التى لم أر لها شبيهاً لا فى البحر ولا فى البحيرة .

ينتهى القنال الداخلى متعامداً مع شارع مائة ولو استمر طولياً فى اتجاه البحر لكان امتداده الطبيعي شارع الروضة (سوق السمك) .

ماؤه شبه راكد لوثته مخلفات السفن الصغيرة واللنشات التى تعمل بالمازوت والمتراصة على حوافيه فى تراخ وكسل وسط المناشير الضخمة التى يستخدمها نجارو السفن التى تبدو مثل هياكل عظمية لديناصورات اسطورية ..

تحده من جهة الشرق أرض الجولف التى كانت معسكرات للإنجليز قبل أن يطردهم جمال عبد الناصر وهى تفصل بينه وبين قناة السويس ،

من جهة الغرب تحده عزبة فاروق وهى مساكن خشبية فقيرة من دور واحد أذهب إليها لشراء الرصاص الحى الذى ملأ المدينة بعد حرب ٥٦.

فقد أطفال أطرافهم وأحياناً حياتهم ومع ذلك أذهب إلى العزبة ، أضرب الرصاصة من المنصف تحت رأس المقذوف قليلاً ، أفرغ البارود ، ثم أضرب الكبسولة بالمسمار فتحدث الفرقعة .

أشكل عند سمكرى اللحام من المقذوفات دبابات ، صواريخ ، طائرات ، لم يعلم أبى أننى قد وصلت إلى أعماق عزبة فاروق حيث عزبة النحاس ، وهى أعشاش من الصفيح الذى لا يكاد يستر شيئاً ، يتحول سقفها فى الشتاء إلى (دش) بارد والطين حولها بحيرات متصلة لها رائحة المجارى .

كان لأبى بيت فى أول عزبة فاروق على شارع (مائه)اشتراه بثمانين جنيهاً ، أجره للغرباء من الصعايدة الوافدين بمائة وخمسين قرشاً فى الشهر ، قال للبائع ثمانون جنيهاً مبلغ كبير لقد اشتريت بيتاً فى شارع كسرى بمائتى جنيه ، قال البائع جنيه ونصف فى الشهر مبلغ لابأس به .

قبض أبى شهرا فى الشهر التالى لم يجد المستأجر . وجد المنزل مكدساً بعدد كبير من الصعايدة وقد رفضوا

دفع الإيجار، رأيت أبى وهو يدس مقطع السمنية تحت حزامه ويأخذ معه جالون الجاز، قالت أمى اذهب يا ولد ناد على عمك، لم أذهب، تبعت أبى وهو يختصر المسافة من آخر شارع الأمين إلى عزبة فاروق مخترقاً عزبة النحاس وزرابى البصل وقطعان الماعز والخراف... قال للصعايدة ستخرجون وإلا أحرقت البيت عليكم أفزعهم التصميم فى عينيه لملموا (خلجاتهم) وخرجوا مسرعين يتعثرون فى بعضهم وسط ضحك الجيران، قالوا لقد باع المسكين البيت لنفس السبب هذه مساكن للسكن يا عم وليست للإيجار، قال أبى وفى عينيه لمعة الانتصار: إنه بيتى كيف يجرؤن ؟.

أحضر أبى الجير كنت سعيداً وأنا أساعده فى دهان البيت، بعد الدهان أعلق الأحبال فى مراين السقف وأتمرجح أنا وأختى ونتنطط على السطوح ولم يقل أبى شيئاً.

لم أحزن لما باع البيت فقد رأيته راضياً.

١٤

كان الوقت صيفاً ، خلع كمونه ملابسه وانتظم فى طابور الأطفال القافزين إلى الماء يتقاطرون فوق المرسى ذى العوارض الخشبية المهترئة والقوائم الحديدية التى أكلها الصدأ .

علمتنى هذه التجربة الاحتراس وعدم الانقياد الأعمى ، وجدت نفسى فى طابور الأطفال ، أفقت على حافة المرسى فى مواجهة الماء ، لامجال للتراجع .

دفعنى الذى خلفى إلى الماء المظلم القذر ، أية شياطين بحرية تتقاذفنى ، مسوخ سوداء ، عيون مظلمة شوهاء ، امتلأ جوفى بالماء والطين والمازوت ، وصلت إلى القاع وسط أكداس من المخلفات البحرية والنفايات ، أحبال ، علب صفيح وهياكل معدنية مثل كلابيب العفاريت . امتلأت مثل زجاجة غارقة ، أوشكت على السكون الأخير لولا أن اصطدمت بقائم المرسى الحديدى ، احتضنته مستميتاً إلى أعلى ، لم يعد فى جسدى موضع إلا ومزقه الحشف البحرى والحديد الصدىء .

-ما الذى تفعله بنفسك يابنى؟ أتريد أن تموت؟

- سامحنى يا أبى لن أفعل ذلك مرة أخرى .

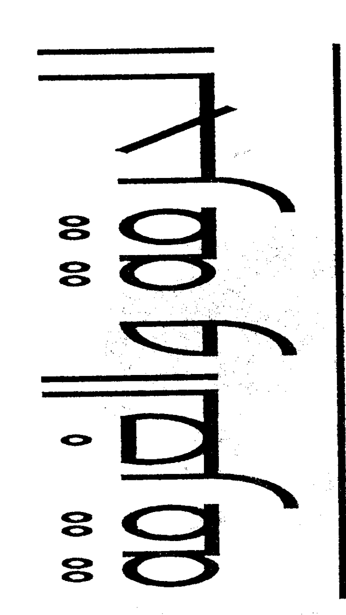
******

جلس الرجل القرفصاء على رصيف المقهى فى شارع الروضة ممزق الملابس فى الشتاء ، قال الناس : كان رجلاً محترماً له بيت وتجارة وأتاه لطف ، يحرك يديه فى الهواء يقفز الفزع من عينيه الواسعتين العميقتين .

صدقونى لقد رأيت العفريت فى قاع الكنال الداخلى يأكل الأسماك والأطفال ، صدقونى الكنال الداخلى مسكون بالعفاريت .

يمد يده للرجل بالرغيف المحشو بالجبن الرومى والزيتون الأخضر ويقول: أصدقك ، والله العظيم أنا أصدقك .






عباس

١٥

ماتت أمه وهى تلده تركه أبوه أوشك على الموت لولا أن تفجر اللبن فى صدر العجوز.

عندما تغضب منه تقول : << أصلك يرد عليك يا فرهود >> .

تقول أمى : فرهود عرق يهودى فى أصله ، لما حضره الموت قال الناس : اسلم يا فرهود ، اسلم يا فرهود ، مات ولم يسلم كان عنيداً مثل بغل .

عمى أيضاً قال كمونه (ذئب) ، يتمدد بجوار الخيمة على شاطىء البحر منتظراً حتى إذا حل الإجهاد من السباحة واللعب يقوم لمصارعتى ، هو أكبر منى بعامين يبتهج عمى عندما يفشل كمونه فى أن يصرعنى .

ظل يحدق فى الشمس حتى أكلت عينيه ، لم تفلح جدتى فى منعه .

بعد أن كبر وفهم دأب على إغواء الأطفال إلى النظر فى قرص الشمس ، يومها ضربنى أبى وقال لأمى : قريبك يريد أن يعمى الولد ، امنعيه من القدوم إلى البيت .

لم تمنعه أمى ولو شاء أبى منعه لمنعه .

كانا يخافان إيذاء اليتيم وغضب العجوز .

١٦

يقول الكبار ستنتهى بورسعيد إما بحرقة أو بغرقة .

حينما احترق المناخ فى المرة الأولى قبل الحرب ظن الناس أنها الحرقة ، ولم يصدقوا إلا وهم مكدسون فى الساحة الشعبية فى خيام أقامتها الحكومة على النجيل الأخضر ، يومها قال له كمونه : تعال سأطلعك على شىء جميل ، رأى من فرجة الباب الكبير غير المحكم الفتيات الناضجات يستحممن جماعة تحت الأدشاش المتجاورة المخصصة للرياضيين رأى لأول مرة فى حياته هذه المنطقة المعشبة أعلى الساقين والنهود الرجراجة البكر تهتز فى صخب التزاحم ، تعجب يومها لوجه كمونه المحتقن – مرت الأيام – واحتقن وجهه وهو وحده فى حمام المنزل متذكراً هذا المشهد التاريخى ، وكلما زار الساحة الشعبية ، يتجه بصره إلى صالة الإستحمام الكبيرة بأدشاشها المتجاورة ، يستنشق عبق الأيام الخضراء .

لم أعد أصدق حكاية الحرقة هذه ، فقد اعتدنا الحريق مع تكرار الحروب ، أما مسألة الغرقة فالأمر مختلف ، فهذا الوحش الجاثم تحت أقدام المدينة من جهة الشمال يملأ العين والقلب بالفزع ، كثيراً ما يهجم على المدينة ، يكسر الجسور ، يطرق الأبواب ، يخمشها بأظافره وفمه المرعب المفتوح دائماً خاصة من جهة

الغرب ، رأيت غدره كثيراً ولم أتعود عليه ولا زلت أرهبه
نذهب للصيد شتاء فى الصباح نراه هادئاً كطفل نائم وفى لحظة ينقض على الأرض يقضمها تحت أقدامنا ، يغمرها بالمياه لمسافات بعيدة .

إنها ليست أسطورة حكاية الغرقة هذه فالبحر وحش حى نجاوره ونلمس أنيابه وأظافره .

****

أرى فى أحلامى الماء يرتفع من طابق إلى طابق حتى يصل إلى السطوح . أحس إحساس بن نوح وقد حاصره الماء من جميع الجهات ، أنسى دائماً تجهيز الطوف الذى يحملنى أنا وأهلى وجارتى الصغيرة الجميلة .

١٧

خلف مطار الجميل وعلى إرتفاع نصف متر يصطدم ماء البحيرة بالسور.

يقفز على الأحجار الصفراء المدببة ، يفكر فى التراجع تحت تأثير الألم والإجهاد ، قال له كمونه سأسير مع الناس على الجسر (إمش سنة ولا تخطى قنا) .

- إنها مسافة صغيرة ربع الطريق تقريباً .

لو استمر امتداد الصخر بهذا الشكل فهو هالك ؛ فلن يستطيع الإستمرار أو العودة ، بجانب هذا الإحساس من الخوف وترقب المفاجأة ، إحساس من يسير فى ماء لا يعرفه .

ربما وقع فى حفرة مما خلفته الحرب أو يعلق بمتراس قديم أكله الصدأ ، ربما وطأ لغماً ساعتها سيقولون ما الذى أصابه حتى يسير فى هذا المكان المقطوع ؟

الماء ساخن فى هذه المنطقة وشبه راكد ، الحمد لله انتهى الحاجز الصخرى أخيراً لامست قدمه الرمل الدافىء الطرى .

آلاف من الكابوريا منزوعة الدروع ملتصقة فوق بعضها اثنتان اثنتان فى سكينة الخلق الأول .

مواضع أقدامه هى الأولى فى المنطقة ، سنأكل اليوم كابوريا يغرس السيخ الحديد المثبت فى اليد الخشبية الطويلة ، اثنتان اثنتان ما ألذ هذا اللحم الطرى !

قال كمونة: سأذهب معك فى المرة القادمة .

قال عمه : لقد رأيت الموت فى هذه المنطقة ، كنت أسند البندقية على حافة السور من جهة البحيرة ووجهى إلى داخل المطار أصطاد الهابطين بالمظلات ، لقد قتلت منهم الكثير رأيتهم وهم يأسرون مهران ويقتلون جارنا السيد جوده ، أنقذني هذا الحاجز الصخرى فى الماء ، لم يستطيعوا العبور إلى ظللت ثلاثة أيام فى الماء بلا طعام

أحب الإستماع إلى عمى ، يبتسم الأهل إذا بدأ الحكاية أفتح عينى أرى ما يقول مجسداً أمامى صوتاً وحركة .

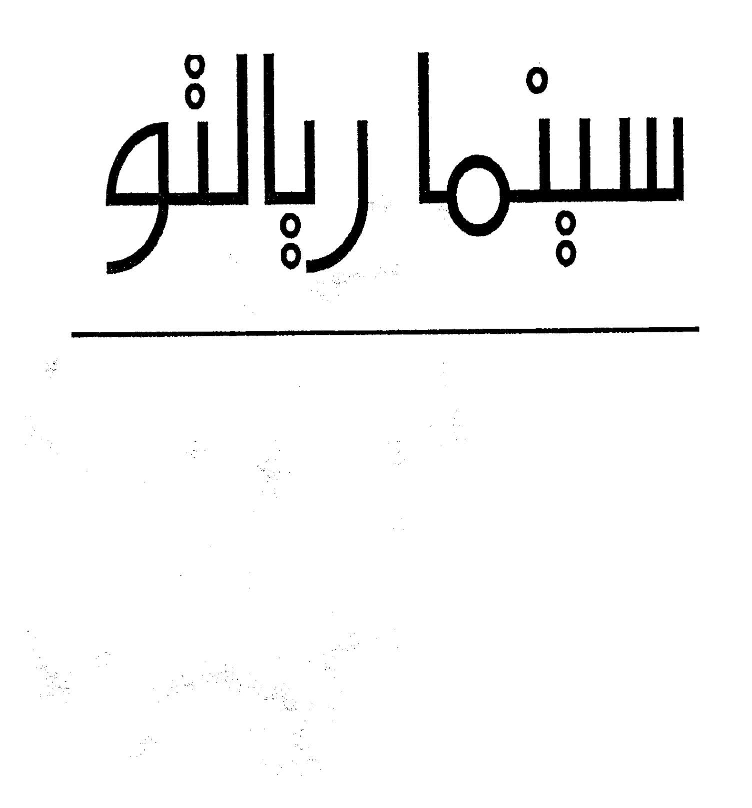
قال الجيران إنه السبب فى حرق المناخ كله ، يقف على سطح المنزل يطلق على الطائرات ثم يهبط إلى المنزل الذى يليه ، لقد أحرقوا المناخ كله ولم يقتلوا عمى ، قتلته سيارة عسكرية مصرية فى شارع محمد على ، قال المستبقون فى المدينة أيام حرب ٦٧ كان يمر على بيوتهم بيتاً بيتاً يطمئن عليهم ، يقدم العون لمن يحتاجه

كان متأكداً أن نهايته ستكون بقنبلة إسرائيلية ، سيارة عسكرية مصرية ؟! << صحيح من مأمنه يؤتى الحذر>>

ربما ظن أن السيارات العسكرية المصرية غير قادرة على قتل المصريين ، خرجت المدينة كلها فى جنازته .

إنها الفجيعة الكبرى أن يأتى الموت للشخص غير المناسب فى الوقت غير المناسب وبالوسيلة غير المناسبة ، أستغفرك يا رب .




سينما ريالتو



١٨

- بتعريفة سمنية .
تحول الكون إلى موسيقى بيضاء ، كف عقله عن التفكير ، يحاول أن يبعد نظره عن هذا الوجه الجميل ، لماذا يخشى أن ينظر فى عينيها ؟هل هى ميدوزا التى ستحوله إلى حجر ؟
الشارع ممتلىء بالبنات لماذا لايحدث له ما يحدث إلاّ معها ومعها فقط ؟!
ربما تحبها قال عمه وهو يضحك بينما يسيران فى شارع الكورنيش قبل ميعاد السينما ، كل خميس يذهبان إلى السينما إما سينما (ريالتو) أو سينما (الشرق) صيفاً وإما سينما (ريو) أو سينما (ماجستيك) فى الشتاء ، من لا يدفع ثمن السينما يشترى فى الإستراحة سندوتشات الفول والطعمية والباذنجان ،
لا أحب أن أذهب إلى السينما وحدى ، ذهبت مرة وحدى إلى (سينما الأهلى) فى الحفلة الصباحية ، لم أستطع أن أكمل الفيلم ، وجدت يد الرجل الكبير الجالس بجانبى تتسلل وتتحسس عضوى ، أحسست بالقرف ، غادرت السينما وأنا أضع يدى فى جيبى حتى أدارى انتصابى يقول كمال ساخراً! لماذا لا تحس بالقرف وأنت تأخذ سماسم أمامك على ماسورة الدراجة .كل فصلنا يحلم بسماسم على ماسورة الدراجة.

أفلام أمريكية غالباً ، جاك ليمون ، تونى كيرتس ، جارى كوبر ، كيرك دوجلاس أحببته فى دور (**سبارتاكوس**) وحزنت بشدة حينما عرفت أنه صهيونى

ترتبط أمريكا فى ذهنه دائماً بالسينما وبحسن بن الجيران . وضع حسن رأسه فى كيس اللبن الجاف المرسوم عليه العلم الأمريكى بخطوطه الكثيرة ونجومه التى بلا عدد والمكتوب عليه بخط كبير معونة من الشعب الأمريكى ، تجمد اللبن الجاف فى حلق حسن جحظت عيناه وأوشك على الموت ، لم يستطع إصبعى الصغير أن يخترق اللبن المتحجر فى حنجرته وضعت القلم الرصاص بإصرار حتى وصل الهواء فى آخر لحظة .

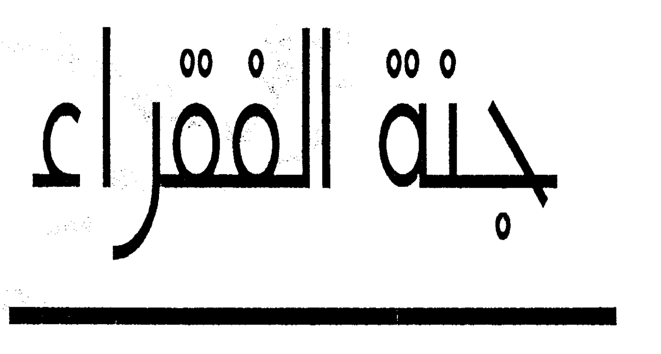
أحببت أقلام الرصاص ما أرى قلم رصاص فى مكتبة إلا واشتريته وما أرى كلمة معونة فى جريدة إلا وأرى عينى حسن الجاحظتين وأسمع حشرجته اليائسة ، وما أسمع نشيد :

مصر مصر مصر أمنا وفخرنا وعزنا ومجدنا
نيلها الحياة منّة الإله شعبها الأبى وجيشها فداه

الذى كنا نردده فى مدرسة السلام الإبتدائية المشتركة إلا وأرى عينين واسعتين لطفلة صغيرة تخطف روحى .







جنة الفقراء



١٩

قبل سفره زارنا الخواجه فى محلنا الجديد .

- أحوالك لا تعجبنى يا محمد ، لازال فى مقدورنا أن نصحح الأمور .

- أشكرك يا خواجه لقد نسيت هذا الموضوع .

أبداً لم ينس أبى هذا الموضوع طيلة حياته أصبح عليه أن يعمل أربعة وعشرين ساعة فى اليوم تقريباً .

فى النهار العمل والفرن ومع أول الغروب إلى آخر الشروق فى انتظار الرزق الصعب ، عمى أيضاً هده الإجهاد وقلة الرزق .

- سأسافر للسويس للعمل عند بن عمنا فى محل التصوير .

- وفقك الله يا أخى عناق حار ووداع سريع .

نظر أبى إلى وقال:

- جاء وقت الجد أيها الرجل الصغير .

٢٠

يجلس كمونه أمام صينية البلى أضع ما أكسبه فى جيوبه أنظر إلى هذه الأجسام الكبيرة التى نلعب معها عند الإشارة المتفق عليها يجرى كمونه بما يحمل فى إتجاه وأجرى أنا فى اتجاه آخر، يجرى الجميع خلفى، فى كل مرة يتم اللعب فى ظل تلك الظروف القاسية.

إلى الحمام أولاً اغسلوا أيديكم وأقدامكم، قبل دخول البيت نخبىء كنزنا فى الرمل الأصفر النظيف تحت الأساس المسلح للبيت الجديد، نأكل معها طعامها الشهى.

- لماذا يختلف طعامك عن طعام جدتى يا أمى ؟
- ألا تحب طعامى يا ولد ؟
- طعامك ألذ طعام فى الدنيا، ولكن طعام جدتى شىء آخر.

وحيدة جدتى فى هذا البيت الذى أعطاه لها جمال عبد الناصر، كانت تدعو له فى كل صلاه - دائماً كانت تصلى -، قال لها الباحث الإجتماعى :

- أنت وحيدة يا حاجه وبيت فى الحرية مناسب لك

فبعد احتراق حى المناخ ذى البيوت الخشبية التى يسكنها الصيادون والفقراء فى حرب ٥٦، عاد الناس من الهجرة الأولى فوجدوا هذه المساكن جاهزة، أقاموا قليلاً فى معسكرات الجولف التى جلا عنها الإنجليز.

****

يملؤنى الزهو وأنا راكب دراجة أبى الرالى السوداء الكبيرة والناس ينظرون فى دهشة وإعجاب .أنطلق فى تلك الممرات الإسفلتية الممتدة بين عنابر الكامب الإنجليزى ، يدور البدال فى الهواء ألمسه فى أقصى ارتفاع له بأطراف قدمى أميل ذات اليمين وذات اليسار بكل جسدى النحيل حتى أتمكن من دفعه لدورة أخرى ،

بنات صغيرات فى مثل سنى أجلس من يأتى عليها الدور أمامى على ماسورة دراجتنا العملاقة لا أجد تفسيراً لذلك الإحساس المبهج إنها القشعريرة الغامضة الاكتشاف الأول لهذا الكوكب الأنثوى اللذيذ ..

- ابتعد عن البنات يا ولد يصيح عمى وقد ارتفع حاجباه فى غضب .. ابتعد عن البنات يا ولد .

لم أبتعد . من يومها يسعين إلىّ وأسعى إليهن موغلاً فى ذلك المجهول السرمدى هذا السراب المفضى دائماً إلى السراب .

أقود دراجتنا ذات الماسورة العملاقة بعيداً عن الممرات المسفلتة ، بعيداً عن أعين الناس ، وبعيداً عن عينى عمى الغاضبتين .

****

قبل التسليم تقول للباحث الإجتماعى :

- أنا لست وحيدة معى كمونه ابنى .

- إنه ليس ابنك يا حاجه أنت وحيدة .

٢١

صممت الحرية على هيئة شرائط طولية من دور واحد باب ينفتح على صالة مفتوحة على ما يشبه المطبخ ثم آخر اليسار باب الحمام وفى أول اليمين باب لحجرة واسعة وفى منتصف الحائط الخلفى للصالة باب ينفتح على حديقة بنفس مساحة المبنى

يفرح الناس عندما تقبل عربة الإستعلامات فى الغروب بتلك الشاشة الفضية الساحرة ، تقيمها فى الأرض الفضاء المنبسطة ، الصغار فى الأمام والكبار خلفهم إنها جنة الفقراء .

احتفظت جدتى ببعض الأدوات الجديدة التى تسلمتها مع المسكن الجديد وضعتها فى علبة للذكرى لا أدرى ماذا فعل بها كمونه حينما صارت إليه .

نظيفة جداً وناصعة البياض وكذلك بيتها ، تجلس بجوار الباب من الداخل تعلق طرف المغزل فى مقبضه تغزل أكياس الصيد التى يستخدمها صيادو الخلول ، ابنها الكبير صياد للخلول زوجها الذى رحل عنها مبكراً صياد للخلول ، إنهم بعض أهلى هؤلاء المنتظمون مثل عقد بشرى بطول ساحل البحر من المدينة حتى بوغاز الجميل ، لوحة فرعونية حية ، الظهر المشدود للخلف الذراعان المفرودتان المتعامدتان على ذراع العدة الطويل ، المسافة الثابتة بين الواحد والآخر ، ظهرهم للغرب دائماً .يتقاطرون فى اهتزازة رتيبة ، لم يقهرهم الموج الذى أكل هذه البيوت الشاطئية الغرقى نصفها خارجه

ونصفها يعول فيه فكه المفترس ، يسحبون محاريثهم التى أصدأتها ملوحة البحر ، تميمة بشرية تعلقها المدينة على صدرها تحفظها من عوادى الطبيعة والناس ، يفرغون أكياس جدتى فى غرابيل يطوحونها عكس اتجاه الريح ، يفصلون الثمار عن القشور ، إنهم يحرثون البحر ..إنهم يحرسون البحر .

****

يأتى إليها كل جمعة بعد الصلاة شيخ قريب من عمرها نفس التجاعيد نفس البياض إلا أنه ملوح بحمرة البحر يقبل يدها يحتضنها فى حنان ورفق وحرص من يحتوى شيئاً ثميناً وهشاً .

تجلس فى جواره وفى عينيها فرحة المرأة بالرجل والأم بالإبن والطفلة بأبيها ، الثوب الأبيض الناصع البياض العمامة البيضاء حول الطاقيةالبيضاء رائحة الكولونيا الرخيصة التى تسبقه قبل أن نراه . خفيض الصوت لم يزاحم أحداً فى حديث وإذا سئل كان بحراً زاخراً من العلم ، قرآن كريم ، أحاديث نبوية ، أشعار ، أمثال ، تصوف ، تاريخ .

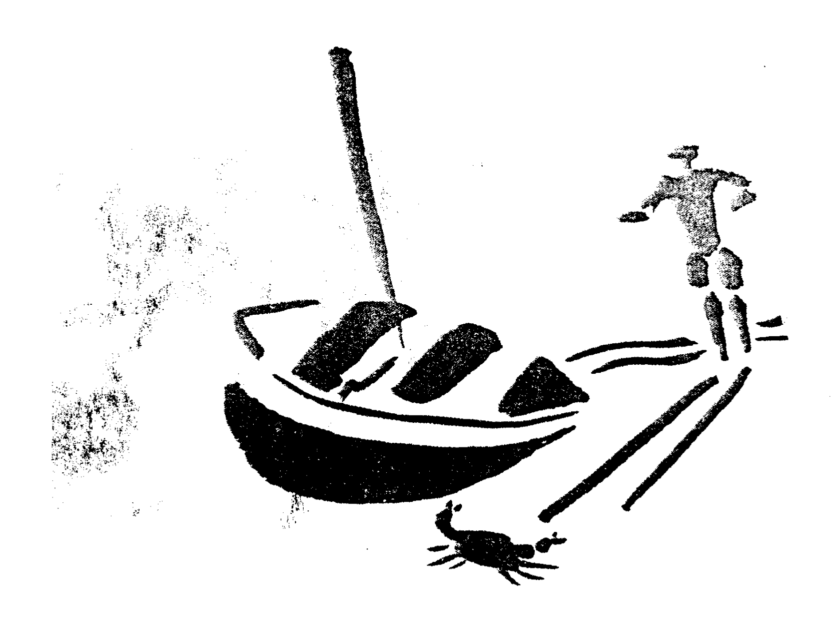
على قهوة الخلايلية يرتفع الصوت بين الوقت والآخر (اسأل) عم الدسوقى ، كان حكيمهم وقاضيهم ، أكلت فى بيته الكابوريا المحشوة بالبصل والمدفونه فى الأرز وأكلت فى بيته أيضاً السمك المملح فى الرمل ، قليل من يعرفون كيف

يملحون السمك فى رمال الشاطىء ، يحب جمال عبد الناصر يتكلم عنه كما يتكلم عن أبو زيد الهلالى وعنتره بن شداد .

يقول وهو حزين إنهم لن يتركوه يا بنى .

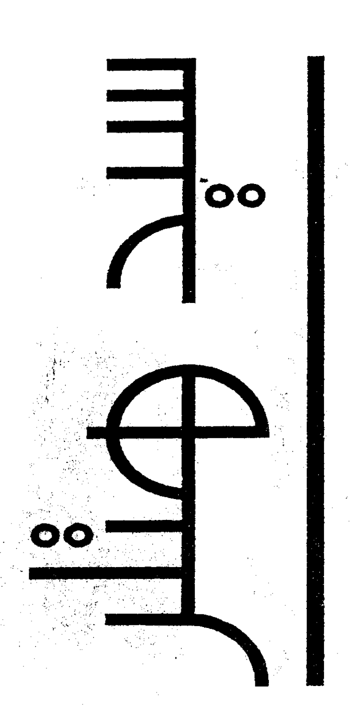
- من يا خالى ؟ من ؟

- الكفار يا ولدى الكفار.



VI







٢٢

تأتى كالفرحة وتمضى كالطيف ، يسبقها صوتها المجلجل قبل حضورها المقتحم بقوامها الرشيق وتقاطيعها الخمرية الحادة ، وهذه الشامة الكبيرة بجوار فمها المفتوح على الدوام ، لا تكاد تستقر كطائر عل أهبة الإنطلاق .

تأخذنى على رجليها وهى تحدثنى وتقبلنى ، تضع فى جيبى مليماً أو مليمين من تلك الملاليم المعدنية الصفراء الكبيرة عليها ذلك الوجه السمين ذو الطربوش ، توزع على جيوبى ما أحضرته لى من حلوى ، بعد الغذاء يتمدد أبى على أرضية البيت الخشبية أمام باب السطوح يستقبل تيار الهواء المشبع باليود ورائحة البحر ، يضع رأسه فوق فخذها ، تمسحه فى حنان وهو مستسلم مثل طفل ، وتظل صامته حتى يفيق .

رأت زوج أختها على رأس الشارع قادماً بقامته المديدة وبدلته العسكرية السوداء بأزرارها النحاسية اللامعة ، شهقت من الفرحة ثم سقطت فى مكانها .

قال القادمون من الإسماعيلية لقد مات فى معركة الشرطة مع الإنجليز ، وهاهى تراه قادماً بلحمه وشحمه وبدلته السوداء وأزرارها الصفراء اللامعة .

- قال الطبيب : قللى من الحركة وأكثرى من الراحة ولا تحزنى وأيضاً لا تفرحى فهذا خطر عليك .

- قالت للطبيب حاضر يا بنى لن أحزن ولن أفرح .

****

جلست بجانب رأسها وهى ممددة وصامتة وملفوفة فى القماش الأبيض الجديد .

– أنت هنا وعمك قلب الدنيا عليك ، ألم أقل لك لا تدخل هذه الحجرة .

– إنها نائمة أليس كذلك يا أبى ؟

– قلت لك لقد ماتت يا بنى – الله يرحمها –

عدنا من المقابر وأنا غير مصدق أننى لن أراها مرة أخرى .

تزورنى فى الليل ملفوفة فى القماش الأبيض الذى تشع منه رائحة النفتالين .

أحزن عندما أستيقظ فى الصباح فلا أجد تلك الحلوى فى جيوبى ولا أجد فى قبضتى المنقبضة تلك الملاليم النحاسية الكبيرة .

٢٣

حلمت حلماً بالأمس يا أمى .

- قل حلمت خيراً بالصلاة على النبى أولاً .

- حلمت خيراً بالصلاة على النبى أولاً أنى أسير مع أختى حبيبة فى حديقة فيها ترعة صغيرة ، سقطت أختى فى الترعة هى تغوص وأنا ورائها تمد يدها الصغيرة أكاد أمسكها تنفلت منى فى ظلام الترعة العميق وصعدت وحدى .

مرضت أختى ليلتها أتى الصباح وهى ميتة .

ينظر أبى إلى قلبه فى عينيه يقطر حناناً وفزعاً ...

فى ليالى الشتاء ونحن نلتف حول المدفأة النادرة التى اشتراها من البحر ، ونحن نأكل الكستناء المشوية المرصوصة على سقفها الخزفى المائل إلى الإخضرار لم يعد يحكى لنا أبى نوادر أخيه الصغير **سيد هتلر** أسماه الجيران هكذا **سيد هتلر** يقول **تولبيد** يسقط طوربيد ألمانى على المدينة .

يعرفون أنه **ابن موت** ، وجدوه ميتاً ذات صباح دون سابق إنذار .

****

أتصنع النوم وأبى يقبلنى فى الصباح ، أمسح عن وجهى قطرات الندى الدافىء ، لم أعد أحكى أحلامى حتى لا أرى هذا الطائر المفزع فى عينى أبى .

٢٤

يفجؤنى أبى بالسؤال

- كم فى جيبك يا بنى ؟ يعطينى مثل ما فى جيبى من يومها وأنا حريص ألا يخلو جيبى من النقود .

لم يعد كمونه يرافقنى على دراجتنا الرالى الكبيرة إلى المدرسة ، لم أصدق أنه يخجل من صينية البقلاوة ،

أحضر إلى المدرسة مبكراً أفتح **الكانتين** أضع الصينية ثم أغلق الباب وأقف فى طابور الصباح لم يكن خوفاً من الأستاذ رمزى الصارم فأنا أحب أن أقف مشدوداً أنظر إلى العلم وأجأر بصوتى تحيا مصر .

كل المدرسين يسمحون لى بالخروج قبل الفسحة بدقيقة أو بدقيقتين إلا مدرس الحساب ضربنى مرة على وجهى أصفعه فى أحلامى صفعة قوية ولها فرقعة

قال مدرس الرسم : فى كل مرة ترسم بندقية .

- ألم تقل هذه حصة الإختيار الحر؟ ثم إنها تختلف عن تلك التى رسمتها من قبل ، هذه لها ذراع ولا تنكسر عند الحشو .

يقف بالساعات أمام محل سرحان لبيع الأسلحة هذه تل وتلك **ديانا** وهذه فالك وهذه التحفة **Bsa** عرفه أصحاب المحل وتركوه .

****

- أريد بندقية يا أبى .
- يفرجها الله يا بنى .

٢٥

يصيح فيه سكان الأمين وهى مساكن موازيه لمساكن الحرية على الشارع الرئيسى من ثلاثة أدوار تطل على حدائق داخلية متقابلة ومتجاورة متصلة بالدور الأرضى تسلمها أصحاب الوظائف من سكان المناخ المحترق فى الحرب . ومنهم زوج عمتى (أبو العربى) هكذا يناديه الناس العجيب أنه لم يسم ولداً من أولاده (العربى) رجل عملاق ذو رأس كبير وأنف ضخم وروح طفل .

حكاء من الدرجة الأولى أجلس أمامه بالساعات وهو يتكلم ولا يدع فرصة لأحد أن يقاطعه أو يلتقط أنفاسه والقصص أنواع قصص الفتونه مع فتوات المناخ ، قصص **النابلطان**[1] حينما عمل عليها مسئولاً عن الماكينات ثم قصص العفاريت والجان .

لم يكن فى حاجة إلى تلك المبالغات الضخمة التى تجعل من يستمع إليه يدارى الإبتسام ، فقد رأيته فعلاً ينزل إلى الشارع بالنبوت فى شجاعة ولكننى أكتم ضحكى عندما يقول أمسكت **طه الجندى** فتوة المناخين من قفاه ولم أتركه إلاّ بعد أن قال (أنا مره) .أما قصص الجان والعفاريت فمنجم لا ينفذ ولو كتبت لفاقت قصص **ألف ليلة وليلة** .

يجلس عصراً أمام البيت فى يده كوب الشاى الكبير وفى فمه السيجارة يراقبنا ونحن نلعب على النجيل

١-النابلطان: مراكب الصيد الضخمة فى أعالى البحار

الأخضر **أول خره و اللجم وركبت خلولها وجندر.**

عرنوس والهادى وصبرى وكركور والعربى الوزير وحمدى الوزير.

يرسل أفضل السمك لبيت **الشيخ سيد الوزير**، يتكلم عنه كما يتكلم عن أولياء الله الصالحين وأصحاب الكرامات، لقد سحره الشيخ بإنشاده ا لعبقرى.

يخاف الظلام يضحك الجيران حينما يعود من **قهوة الحسينى** فى أول شارع التجارى التى تجمع أقطاب العائلة ليلاً ويصيح بآل بيته أن يضيئوا السلم.

بيته فى المناخ متحف حربى بل متحف أحياء بحرية وإن أردت الدقة متحف أموات بحرية.

هذه الإستاكوزا الضخمة المعلقة على الباب بشكلها البشع وهذه القواقع الكبيرة النادرة كذلك تلك القطع الحديدية المتآكلة من مخلفات الحرب العالمية مسدسات ودانات لم تنفجر وقطع من الآثار البحرية الكبيرة.

يحكى عن عروسة البحر التى تزوجته واشترط عليها أن يعيش معها شهراً ومع أهله شهراً أما قصة المدفع فذلك بعد أن عمل فى القاعدة البحرية، لابد أن تتحسس بأصابعك فى كل مرة هذه المنطقة اللينة فى رأسه قبل أن يحكى الحكاية، فعندما وقع على رأسه المدفع الذى يزن عشرين طناً بقى بين الحياة والموت فترة طويلة لولا عناية الله وبراعة أطباء القوات البحرية نزعوا العظام التى انغرست فى مخه وتركوا تلك المنطقة

اللينة فى رأسه فهو الخبير الأول فى محركات الزوارق الحربية وتوربينات الصواريخ ، قائد القوات البحرية بنفسه زاره فى المستشفى واطمأن عليه . بدأت القصة باصطدام رأسه ببكرة الونش الذى يرفع المدفع ثم حدث تعديل بسيط فالذى سقط على رأسه هو المدفع نفسه الذى يزن عشرين طناً ، ينظر أبى إلى تلك المنطقة المنخفضة فى رأسه مشفقاً - العجيب أنه بعد أن ماتت زوجته وتزوج أولاده وجدوه قادماً بفتاة صغيرة من الريف أنجب منها عدداً من الأطفال يماثل ما أنجبه من عمتى - عندما تم نقله إلى القاعدة البحرية فى الإسكندرية واجهته مشكلة الإيجار وهو رجل ذو عيال قمنا بتأجير بيتنا فى شارع كسرى وشغلنا بيت الأمين عدة سنوات حتى عاد مرة أخرى إلى قاعدة بورسعيد .

****

- ابتعد عن السور يا ولد .

كمونه هو السبب يحاول صيد العصافير بالنبلة من الحدائق فيكسر زجاج البيوت ، كنت ماهراً فى صنع هذه النبال من عجل الطائرات الداخلى الأحمر السميك ، الخطان المتوازيان تماماً واللقمة الجلد اللينة بحجم الحصاة الصغيرة والمقبض الحديدى المجدول فى تناسب واكتمال ، لم تعد مادة من سلك وجلد إنها جزء من أعضائى لها حساسية أصابعى وتوثب روحى وثاقب رؤيتى .

أخرج إلى الأرض الفضاء الفاصلة بين المدينة والشاطىء الجنوبى ، أنصب الفخاخ التى أعمرها بالديدان **المنيح** الذى أجمعه هو و**القراص** هذه الحشرة الحمراء التى تشبه العقرب الصغير من بين الأحجار الطينية المالحة .

****

- يمر الوقت سريعاً وهو يدرج **البقير والدقناش الصريطى والدقناش الأقرع والزرزور والحميّر والنقرظان** ، تنسيه النشوة آلام تلك المناقير الجارحة المستميتة وهو يفكها من الفخاخ ...

لو أن معه بندقية !!!

٢٦

يا عسكرى يابو بندقيه
يا زينة الأمة المصرية

أحب هذا النشيد . من يوم أن صفق لى الناس عندما قلته فى الإذاعة الداخلية لمدرسة أجا الإبتدائية وهذا النشيد نشيدى ، كلماته بسيطة لكننى كان لابد أن أمر بالتجربة .

– وضع قطعة الحلوى مرة واحدة فى فمه الكبير ثم أتبعها بالأخرى .

– أين تذهب أعطنى ثمن ما أكلت .

يهوى الرجل الضخم بيده على الوجه الصغير ، اهتز الشارع البيوت تتمايل لا يدرى كم مضى من الوقت حتى استقرت البيوت مرة أخرى ، هل هى الصفعة أم هول المفاجأة ؟

ارتجت البيوت مرة أخرى عندما اصطدم الحجر بهذا الرأس المخيف . يهجم الحيوان على المحل يكسر ما يعترضه ، يقلب الصوانى ، يدوس على النعمة الممتزجة بالعرق والدم . لن أنسى أبداً هاتين العينين الغبيتين المظلمتين .

– الشارع دنيا . فيها الخير وفيها الشر .

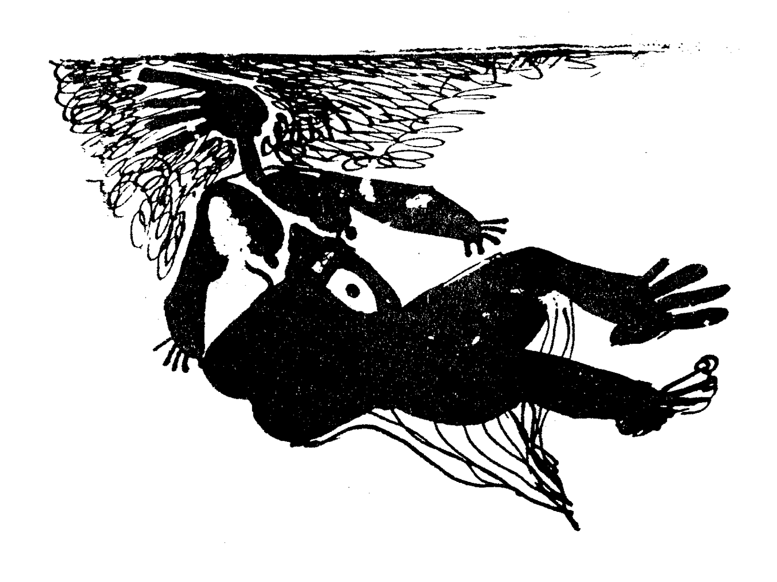
– إنه شرطى يا أبى .

– فى كل مهنة الصالح والطالح .

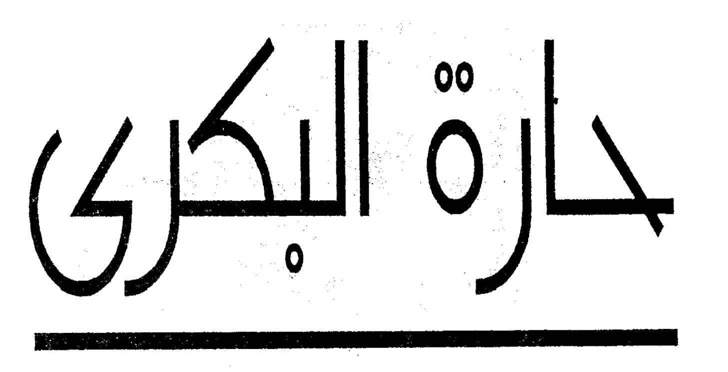
– مهنة ؟؟ كيف يكون الشرطى لصاً ومجرماً يا أبى ؟!

لم يهدأ أبى إلاّ بعد أن قالوا له لقد انتقل إلى بلدة بعيدة خوفاً من انتقامك .

- عرفت الآن أن التجربة وحدها هى التى تعطى للكلمات معانيها .






حارة البكرى



ᐱᒋ

٢٧

بيت صغير فى حارة البكرى وشارع كسرى ، يملك كل طابق ساكنوه ، نسكن الطابق الأخير ، حجرة عمى المسافر على السطوح هناك أيضاً الحمام والأرانب وخيمة(البلاج) ملفوفة بعناية حتى يأتى الصيف وأيضاً برميل السردين المملح الخشبى الكبير ، وبرميل السردين المملح الصغير .

الكبير خزين العام والصغير بملحه الخفيف للإستهلاك خلال الموسم تصبح المدينة كلها برائحة السردين **الدهنة والمبرومة** يأتى الفيضان وتتعكر مياه البحر بالطمى الأحمر وجذوع الأشجار وكثير من مخلوقات الله الغارقة فى النيل وتمتلىء الأفران بكل أنواع السردين ، المشوى فى الصاج والمشوى على البلاط والسنجارى والصينيه يعبأ السردين المملح فى صفائح مربعة مغلقة بالقصدير تحملها السيارات إلى كافة أرجاء مصر ، فى موسم السردين تشبع المدينة وتتزوج البنات وتتعمر البيوت وكما يخزن الفلاح الحبوب لعمار بيته طوال العام نخزن نحن السردين المملح .

هناك أيضاً موسم الشبار الأخضر والأبيض وموسم الحناجل وموسم الدنيس والوقار ولكن موسم السردين هو العيد الحقيقى .

تجربة غير عادية أن تعيش وحدك فوق الناس مع حمام يألفك يقف على كتفيك ويأكل من يدك وأرانب تستأنس بك وتتشمم أطرافك . المدينة مختلفة من فوق

السطوح الفنار ودورته الرتيبة الهواء المصفى، الوحدة ، الوقت الكافى لاستكشاف الذات ورزم من مجلات الأطفال وشخصياتها الحية ميكى تان تان تم تم زورو نشتريها بالميزان ونخزنها لزوم المحل أدمنت القراءة لابد أن تمر كل ورقة تحت عينى قبل أن تصل إلى يد الزبون .

بعد سفر عمى ، تبدأ نوبتى قبل الفجر بساعة أو ساعتين ليستريح أبى حتى ميعاد المدرسة .

بطىء هذا الليل وثقيل يترك المجلة التى قرأها للمرة الثانية ، يمسك بغابة طويلة ويطارد الخفافيش التى جذبها الضوء ، يفرح عندما تصطدم الغابة بخفاش غير حذر ، بعض الخنازير المنطلقة فى الشارع تغير اتجاهها مبتعدة عن هذا الراقص وحده فى الليل .

******

أتمدد فوق كرسى البلاج أمام المحل أحاول أن أفتح عينى حتى لا أسقط فى نعاس غبشة الصباح ، أضع فوطة العمل فوق كتفى أتقى بها لسعة الفجر التى تتسلل حتى العظم .

- لماذا أتيت مبكراً ؟

- نسيت أن أنبهك .

يتجه أبى ناحية الصاج الأخير من جهة الحارة يتقلب وجهه بين العبوس والإبتسام فى نظرة مزيج من اللوم والشفقة وكثير من قلة الحيلة .

- لقد ضحك عليك يا حمار .

- من يا أبى ؟
- الحمار.

يخبىء جسمه الكبير فى الحارة الجانبية ، ينتظر حتى تهدأ الحركة تماماً فى الوقت الذى يميل فيه الصراع لصالح سلطان النوم ويمدد رأسه ، يأخذ الفطيرة من الصاج يبتلعها فى هدوء ويعود يكرر ما فعل بحذر فطرى خبيث ، لقد أحس به أبى بالأمس ونسى أن ينبهنى.

يتعلق أبى بثيابى وأنا أنطلق خلف الحمار كالمجنون تلتقى عيوننا ثم ننفجر فى ضحك هستيرى.

ماذا سنأكل غداً؟

فى الأيام التى يقل فيها الرزق كنا نأكل من فطيرنا اللذيذ كثرت الأيام التى أكلنا فيها الفطير حتى مللنا.

فى أوقات كثيرة كنا نفضل الجوع على أكل الفطير.

- اعطنى الذهب سأشترى محلاً فى الإفرنج.
- إنه مصاريف الجامعه هذا كلامك.
- إنه مالى قلت لك هات الذهب.

ملقاة هذه المرأة القوية على الأرض أول مرة يرى دموعاً فى عينيها أول مرة يرى أباه هكذا.

تلتقى عيوننا ، يطرق أبى يخرج متعثراً فى يأسه وندمه

استعادت الأم توازنها سريعاً تناسى الجميع هذه اللحظات الغريبة لاأنسى نظرة أمى وخجلها أن أراها هكذا ، لم تكن خائفة ولا ضعيفة إنما مشفقة علىّ مما أرى ....

****

فى الليل يعلو صوتها الضاحك مع أبى لم يكن من عادتها أن يعلو صوتها فرغم صغر البيت لم يشغلا أى مساحة مادية فى فراغه القليل .

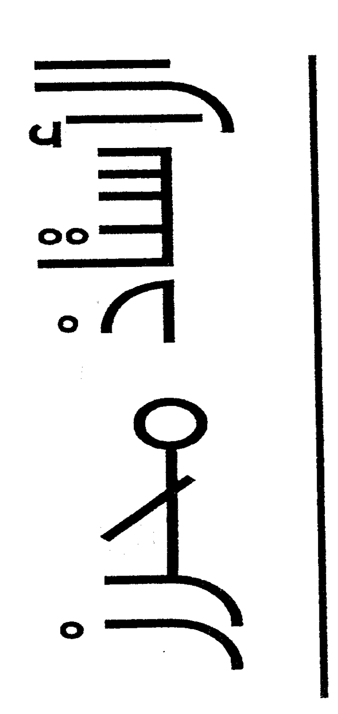
كانا روحين وحده يعلم الله متى وكيف يلتقيان .

ما الذى تفعله أيها الفقر بالناس ؟

ما الذى تفعله أيها الحب بالناس ؟









٢٨

لا أنسى أبداً وجهاً رأيته وأحب الهندسة وأكره الحساب فعقلي لا يحتفظ بالأرقام ، أعشق التاريخ فى الوقت الذى أنسى فيه أسماء الناس أجلس مع الشخص ساعة نتحدث أخاف أن أناديه باسمه فلا أجد ذاكرة تطاوعني وأحب الشعر أحفظ القصيدة من القراءة الأولى .

****

تشتبك الكلمات فى فم الأستاذ محرز مدرس اللغة العربية وهو يشرح قول ناجي : وأنا منك فراش ذائب فى لجين من رقيق الضوء ذابا .

يحاول التصوير بيديه ، يضع يده فى شعر عبده معروف الجالس فى المقعدى الأمامى .

يروح ويجىء فى الفصل كأسد حبيس تجحظ عيناه وتنتفخ أوداجه كمن يوشك على الاختناق ينظر إلى

قل يا ولد وأقول وأنفاسى تتهدج ،

فتح الله عليك يا ولد .

وبين قل يا ولد وفتح الله عليك يا ولد تنتهى حصة النصوص ولم يشرح الأستاذ محرز بيتاً واحداً .

فى حصة التعبير يقول لكمال المنهمك معى فى لعب الضامة أبشر يا ولد فأنا أرى قفاك فى نفس المكان العام القادم .

نذاكر معاً فى بيتى أو فى بيت كمال القريب من بيتنا أو فى بيت حنا فى حى الإفرنج أمام الكنيسة الإيطالى أذاكر مع حنا لأنى أحتاج الحساب وهو يحتاج الإنجليزى ويذاكر معنا كمال لأنه صديقنا ،

كمال بهائى يكتب فى بطاقته الشخصية مسلم .

تكثر أمى من البسملة طوال الطبخ وأثناء غرف الطعام حتى تحل فيه البركة والنفس ، أكلت فى بيت كمال <<أرز وفول حرادى مدفونة>> وشبعت ، قالت أمى عندما أخبرتها هل (سميت) قبل الأكل قلت (سميت) خجلت أن أقول لها لا أتذكر .. قالت المهم النية طالما نيتك سليمة ستحل البركة .

أبو كمال عجلاتى أركب أنا الموتوسيكل الماتشليز رقم ٤٥ ويركب كمال الآخر رقم ٤٠ ونتسابق ليلاً فى طريق الكورنيش يعيد كمال مفاتيح المحل قبل أن يستيقظ أبوه ، لما سأل لماذا يجد الموتوسيكلات دافئة فى الصباح قال كمال ربما يركبها العفاريت فى الليل

فى إحدى المرات اختبأ أبوه فى صندرة المحل هجم علينا فأطلقنا ساقينا للريح يقول عفاريت يا أولاد الأبالسة .

****

يحب كمال فتاة مسلمة قال لى سأسلم وأتزوجها كان يحبها بجنون ، لم يسلم ولم يتزوجها وعاش بجرح فى قلبه لم يندمل نفس الجرح الذى لم يندمل فى قلبى ولأسباب مختلفة .

٢٩

بعد أن أفلس أبى عمل فى مصنع (بروك بوند) لتعبئة الشاى الذى أممه جمال عبد الناصر

تسلم دراجة جديدة ماركة (نصر)، دراجة اسبور بيضاء ورفارفها خضراء ، أخذتها واحتفظ هو بدراجته الرالى السوداء الكبيرة ، قلبت (الجدون) حتى تصبح شبيهة بدراجات السباق .

أتسابق مع كمال هو بدراجته (الأربعة والعشرين) السوداء التى كنت أستأجرها بالساعة ، أجده قبلى دائماً أمام مدرسة الأقباط الثانوية فى شارع محمد على لم أتخيل أنه يكذب إلاّ بعد أن شاهدته بعينى رأسى يخرج إلى شارع الثلاثينى الواسع كان شرط السباق شارع التجارى المزدحم بالناس وعربيات اليد المحملة بالبضائع .

بعد أن نجحت فى الإعدادية اشترى لى أبى بندقية صيد تشيكى ماركة (سلافا) صنعتها المصانع الحربية بعد ذلك وأسمتها البندقية نصر ، اشتراها بالتقسيط من محلات عمر أفندى التى أممها جمال عبد الناصر .

نذهب للصيد نحن الثلاثة أنا وكمال ونبيل الطيب المجنون بالصيد يجمع فى بيته الحلقات المعدنية التى يجدها حول أقدام الطيور (الواق-السويد-الزرزور-السوفرى-الخضير-البط) عشرات الأنواع التى تحضر فى الموسم ، نصطادها إما عند كوبرى الجميل المكسور

منذ العدوان الثلاثى وإما من المزرعة الغربية فى طريق الجميل أو المزرعة الشرقية عند الترعة الحلوة والتى كنانأكل فيها الخرشوف والجدرة والبنجر الأحمر والتين الشوكى وإما من الجبانات .

لدينا أفخم جبانات فى مصر ، جبانة الحلفاء نجيل أخضر فاقع اللون يمتد مثل سجادة سميكة تغوص فى طراوته الأقدام مرصوصة فوقه الشواهد الرخامية المنقوش عليها بالأحرف الإنجليزية الكبيرة أسماء الجنود الميتين فى الحرب العالمية ، مرصوصة فى نظام وكأنها طابور عسكرى ينقصه الأرجل والأذرع والرءوس يقول أبى وهو يبتسم معظمهم من الأفارقة والهنود يقفون خلف أسوار معسكراتهم الشائكة المطلة على طريق الجبانة ينتظرون الجنازة .

يقول الناس يا دايم يا دايم والدايم هو الله وهم يرددون (**وات تايم وات تايم وات تايم سكس اكلوك**) .جبانة الأجانب مبانى على النظام الأوروبى أمام الباب الخشبى المنحوت المزخرف تنتصب التماثيل الرخامية الرائعة بالحجم الطبيعى وعلى الشواهد والأبواب صور الميتين فى أطباقها الخزفية الملونة وقناديل الشموع الفاخرة .

مقابر المسيحيين المصريين ليس فيها بذخ مقابر الخواجات هى أقرب إلى مقابر المسلمين مظاهر البذخ والأبهه فى الجنازة . العربية الفاخرة التى تجرها الأحصنة المطهمة والتابوت الخشبى المزخرف تنسدل

حوله ستائر العربة السوداء وهؤلاء المشيعون بملابسهم الرسمية مشهد آخر أبهة
مستطيل صغير من الأرض محشور بين موتى المسيحيين وموتى المسلمين حوله سور متداع من الطوب الأحمر فيه أعلى سنديانة في الجبانة وفيه أيضاً قبور هدمتها الطبيعة والوحشة ، على شواهدها نجمة وكتابة بالعبرية تكاد لا تبين وسط أحراش من الشوك والنباتات الوحشية المرتجلة التي تعمل كهوفاً من الظلمة تشبه تلك الأماكن المهجورة التي يسكنها فرانكشتين في أفلامه المرعبة تأوي الثعابين والحشرات السامة كنت أنزل إليها باحثاً عن طيورنا التي تسقط فيها .

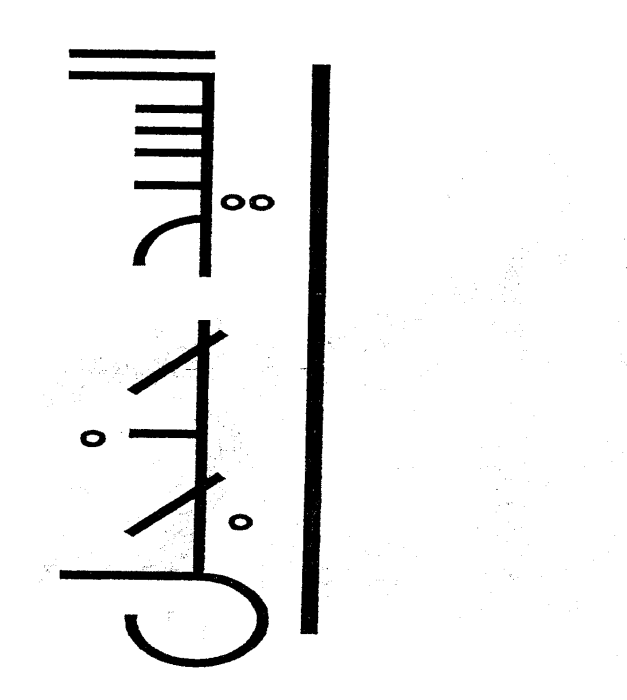
الأحواش الكبيرة في أول مقابر المسلمين ثم يقل حجم المقبرة كلما اتجهت غرباً الناس درجات حتى وهم تحت الأرض .

لابد أن يزور الناس أيضاً (مقابر الشهداء) ففي كل بيت في بورسعيد شهيد .

لايدفن البهائيون في الجبانة يدفنون على طريق دمياط في الرمل المالح سألت قالوا يرفض أهل الدين قبول الكفار الأرض نفسها تطردهم الرمل المالح على الطريق يلفظ الجثث ..

الناس هم الناس حتى في مملكة الموت .







٣٠

- لن أعطيك كرة أخرى يا بشروش .
- لقد أحرزت هدفاً .
- هدفاً ميتاً لا طعم له ، أعطيك الكرة تردها لى ،هل تفهم يا أنانى ؟

قصير هذا السيد حنجل وعنيف يهرب أى حارس مرمى من تسديدته القوية ، يقفز فى الهواء ثم تنطلق الكرة من قدمه المقوسة كالقنبلة ، يضحك محمدون أثقل وزن فى المدرسة وربما فى المدينة كلها ، ولكنه بالتأكيد أخف دم فى الدنيا .

- سألعب معكم أنا فى فريق البشروش .

لا يعترف محمدون بوزنه الثقيل ، يري نفسه رشيقاً والعجيب أننا نصدقه ، أهجم عليه محاولاً إبعاده بالقوة ، يضع رأسى تحت إبطه الثقيل ، أكاد أختنق فى اللحم والعرق يقول لى ضاحكاً لا تقترب من (التخين) يا بشروش يقتلك اضربه وأنت بعيد ، الوحيد الذى يزوّغ من باب المدرسة جهاراً نهاراً ولا يعترضه أحد .

- قابلنى يا بشروش عند السيوفى .

يتجه البشروش نحو سور المدرسة الخلفى ، يقول الزملاء لا تتأخر يا بشروش عن حصة النصوص .

يضع السيوفى كومة السندوتشات أمام محمدون .

- كل يا بشروش ، لقد أكلت طعامك فى المدرسة .
- الحمد لله .

فى كل مرّة يكثر محمدون من العزومة الصادقة وفى كل مرة أيضاً لا يأكل البشروش .

سور مدرسة البنات الثانوية ، يرفع رأسه لشباك مفتوح لا يقف فيه أحد ، إنها جالسة بجوار هذا الشباك . يهبط الصمت الثقيل ، يمسح خرزة توشك على الإنفلات .

لماذا يخجل من تلك الدموع النافرة ، العقاد نفسه بكى من لوعة الحب ، يرد على نفسه : العقاد أخذ قراره ثم بكى ، لماذا لا تأخذ قراراً أيها الرجل ؟

يتمتم بكلمات كامل الشناوى :

أحببتها وظننت أن بقلبها
نبضاً كقلبى لا تقيده الضلوع
أحببتها فإذا بها قلب بلا نبض
سراب خادع ظمأ وجوع

يجأر بصوته فى الشارع الصامت الخالى :

سراب خادع ظمأ وجوع ، سراب خادع ظمأ وجوع .

– أسرع يا بشروش أسرع أوشكت حصة النصوص على الإنتهاء .

٣١

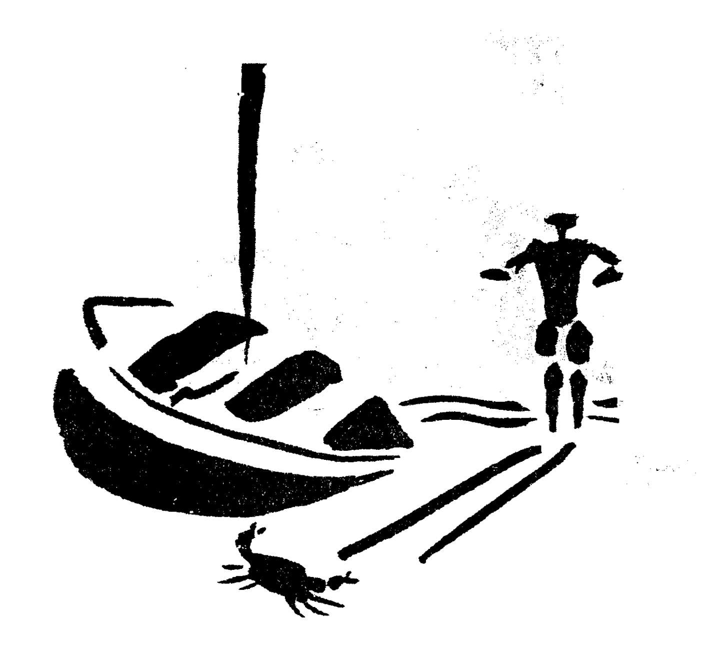
- حفر وهرش ، حفر وهرش .
- تحرك يا أخى وأنت تتكلم هذا تمثيل وليس حصة نصوص .
- هذا الدور لا يلائمنى ، ثم إن المسرحية كلها سخيفة .
- ثورة الموتى لا تعجبك .
- الموتى لا يعرفون الثورة ، لا يثور إلاّ الأحياء فقط يا أستاذ شوقى .
- كفاك فلسفة وقل هذا للكاتب الأمريكى (اروين شو)
- أمريكا أيضاً نريد أن نتنفس يا رجل .
المخرج شوقى نعمان الأخ الكبير لزميلى وصديقى محيى الدين .
- لماذا يعاملنى أخوك هكذا يا محيى ؟ ، ثم ما هذه الاختيارات الغريبة العام الماضى **أهل الكهف** والآن **ثورة الموتى** . .
يضحك محيى ويقول لولا أنه يعمل حساباً لخاطرى لطردك من فريق التمثيل فأنت فى نظره غير موهوب ولا تسمع الكلام ولا أمل فيك ..

****

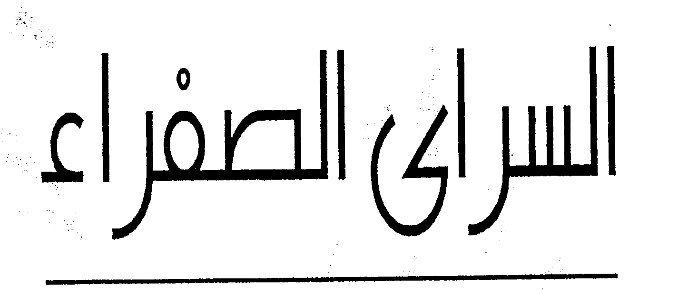
يسكن عمى حسن فى الدور الأخير على سطوح بيت العصفورى أمام **سينما مصر** تحكى زوجته عن هذا الشاب **سمير** بنظارته الطبية والكتاب الذى لا يفارقه يتجول فى السطوح شارداً يجلس للقراءة بعض الوقت ثم يقوم فجأة يرسم أشكالاً على الأرض يخاطب نفسه

تـارة وتـارة يخـاطب السمـاء ، مسكين ربنـا يشـفيه لأهلـه الطيبين .





11.


السراى الصفْراء



حى العـرب مقسـم هندسـياً إلى شـوارع طوليـة وشوارع عرضية فى نظام ثابت تقريباً ، بالطول الشوارع الأساسـية العريضـة السـواحل وكسـرى والحميـدى والثلاثينى والتجـارى وبـالعرض شـوارع: الأمـين (وهـو الحد الفاصل بين حى المناخ وحى العرب) ، عدلى، وبنى سـويف ، وأسـوان ، والمنيـا ، والجـيزة ، والدقهليـة ، وأبـو الحسن ، والروضة (سـوق السمك) وبـين هـذه الشـوارع الأساسـية شـوارع أقـل اتسـاعاً تفصـل بينهـا حـارات مرصوفة بمكعبات الحجـر البـازلتى الأسـود الـذى يلمـع تحت مـاء المطر فى الشتـاء ، كنت أخبىء حجراً منهـا فى صندرة السلم أستخدمه فـى كسر ثمـرة الـدوم حتـى أحصل على نواتها البنية التى تشبه ثمرة الجوز الصغيرة .

ومن يقع فى دائرة شارع كبير عرضى يصبح من أهلـه وقـد يسـمى الشـارع باسـم واحـد أو أكـثر مـن سـكانه المشهورين فشارع بنى سويف هـو شـارع **كبره** فى نصفه الأعلى وهو أيضاً شارع **نجم** فى نصفه الجنوبى ، وكذلك بعض الحـارات مثـل حـارة **أبـو دنيـا** أمـا شـارع أسـوان الذى تتبعه حـارة البكـرى - فهـى تليـه تمامـاً - فـاسمـه شـارع **السراى الصفراء** ،حتـى أن الحكومـة تكتـب فـى البطاقة الشخصية لسكان المنطقـة **شياخة السراى** ولا تقـول شـياخة أسـوان كمـا هـو مـدون علـى اللوحـات الحديدية المثبتة على جانبى الشارع والمكتوبة بالعربية

والإفرنجية ، ولم يتسم هذا الشارع فى يوم من الأيام باسم شخص من سكانه ربما لكثرة الشخصيات المشهورة فيه .

والسراى الصفراء مبنى ضخم يشغل مساحة تعادل ما يشغله ثمانية بيوت من بيوت الحى الصغيرة المتشابهة تقريباً فى الشكل وفى المساحة ، يقول الكبار كان مستشفى للمجانين ، رأيته لفترة مشغولاً بمدرسة إبتدائية ، يحافظ السكان وأصحاب المحلات على نظافة شارع أسوان فهو فناء مدرسة يرتفع فيه علم مصر الذى يحييه السكان والتلاميذ كل صباح ، لعب على أرضه مشاهير الكرة فى المدينة **نجم وأخوه أمّح ، السنجق ، العربى الشكورى** وغيرهم ، كثرت هزائمنا فى الكرة والسبب فرج هذا المارد الأسمر كابتن الفريق قلت لعم محمود الحلاق هذا ظلم قال أنت لم تره فى شبابه يدعى فرج المرض أحياناً .ويعتذر عن المباريات الهامة وكنا ننتصر ، كان الجميع يعرفون وكان الجميع راضين

ضربت شخصاً من شارع عدلى نظر إلى حبيبتى نظرات لم تعجبنى ، كاد أبناء(عدلى) أن يفتكوا بى لولا فرج . أخذنى إلى شارعهم واعتذرت ، عيب أن تضرب أحداً فى شارعك وعيب أيضاً أن تضرب من يعتذر لك فى شارعك .

وشارعنا منافس خطير فى حرائق شم النسيم ، ندخر الوقود من الأخشاب والأقفاص من العام للعام ومع اقتراب الموعد يصبح من المألوف رؤية تلك الدمى الكبيرة

المحشوة بالقش تتدلى من النوافذ ومن أسطح المنازل لا تكتمل الحريقة إلا بحرق (الألبى)،

ندخر أيضاً الزجاجات الفارغة والأحجار لمقاومة الحكومة إذا قررت منعنا وتحسباً لأى عدوان مفاجىء .

٣٣

سماء ملطخة ببقع رمادية يتخللها ضوء باهت لشمس خريفية غاربة ، السراى الصفراء بشبابيكها الكثيرة الكبيرة والمتراصة فى نظام ثابت والمغلقة دائماً.

البلكونة الخشبية الممتدة بطول المبنى والمستقرة على أعمدة خشبية غليظة تحد الرصيف الطويل الذى كنا نلعب عليه الكرة ونحن صغاراً ، سطح المبنى الذى يبدو من فوق سطوحنا ضعيفاً متهالكاً قياساً إلى سائر المبنى القديم القوى بحجارته الصفراء الضخمة ،

إحساس يشبه اليقين أن فى هذا القصر الموحش حياة يقسم أبو عوض البقال أنه سمع فى مرات كثيرة أنيناً معذباً خلف الشبابيك المغلقة وأحياناً يسمع ضحكات مرعبة كضحكات الشياطين السراى مسكونة

- تهبط كتل الظلمة خانقة وثقيلة ، هبة هواء باردة ينكسر أمامها القميص الصيفى الخفيف بأكمامه القصيرة ، تنكمش المسام عند منابت الشعر ويقشعر البدن ،

- إنها سراى صفراء أخرى فى الليل أرانى أجوس فيها أفتح نوافذها نافذة نافذة أفتح أبوابها باباً باباً إنها التجسيم الحى لعالم ألف ليلة وليلة الذى أخطو فيه بنهم الصبا العفى وشبقه الغائر وخياله الممتد بلا حدود

يستند برج الحمام على حائط الجيران ، قبل أن يتعملق هكذا ويحجب عنا نصف المدينة من جهة

الجنوب كان بيت طه الصغير قديماً قصيراً تمتلىء سطوحه بكل أنواع الطيور الداجنة ، أشب على السور الجنوبى أقلد صوت الديك الرومى يشتعل السطوح بأصوات كل الديوك الرومية الغاضبة ، أصص الورد البلدى بألوانه الفاقعة والفلفل الأحمر والأزرق والأخضر بقرونه الخزفية الصغيرة .

نسمة ربيعية دافئة تهز حبل الغسيل على سطوح الجيران ، لماذا هى بهذا الجمال تلك الملابس النسائية بألوانها الصيفية التى تختصرها عينى فى ذلك اللون الأرجوانى الدافىء ، أنتشى وأنا أرى الحمالة النسائية فى رقصتها الوحشية فوق جمرات الخيال ، ما هذه الفوضى الجسدية التى تعترينى ؟

يزورنى حبل الغسيل فى الليل كائنات أنثوية لها رحيق الورد وبهجة العسل ونضارة الفردوس يحرص أبى كل صباح أن يرانى أشرب كوب اللبن بعد أن يضع فيه بيضتين نيئتين طازجتين .

٣٤

تـأخذنى الرهبة أمـام هـذا البـاب المغلـق ، فـى كـل حجـرة أفتحهـا فـى سـردابى الطويـل أرى نفقـاً مظلمـاً يتصل بهذا الباب المرعب <<بابى التاسع والتسعين >> .

تهتز الكنبة القديمة المحشورة بين الحائط والسرير ذى الأعمـدة الحديديـة المرتفعـة ، تعبـث أصابعـه فـى الكريتون الذى حال لونه من كثرة الغسيل وهى جالسة على كرسى خشبى أمامه تفصل بينهما ترابيزة صغيرة مفتوح فوقها كتاب الإنجليزى (**قصة كليو باتره**) .

علـى طـرف السـرير تتكـىء زميلتهـا بجسـدها الفـائر المتفجـر مـن قميص النـوم الصيفى ، تنظـر فـى عينيـه اللتين لا تريان أى شىء .

- مسكين هـارمكيز هذا العـابد لكليـو بـاتره هـذا المطـرود من جنتها تقول الزميلة

- لا ذنب لكليو باتره هو الذى يفعل بنفسه ما يفعل .

- دعينى أقرأ أنا هذا المقطع .

- ما أقسى قلبك يا كليو باتره .

يضع الكتاب ينظر فى عينيها

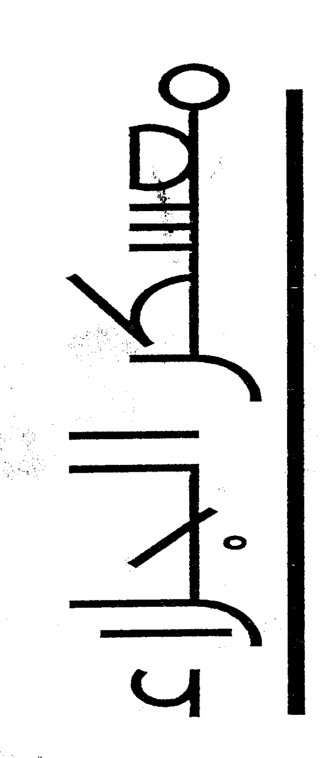
- أنا أحبك

أخيراً قالها خرجت الألفاظ واضحة مرتبة على حين غفلة منه ، صوت عبد الحليم حافظ يصرخ وحده فى فضاء الكون :

قول بحبك قول كرهتك بس قوللى أى
حاجه يا حبيبى

- أنا لا أكرهك .
ياللعذاب إنها لم تقل أى حاجة يا عبد الحليم حافظ .







٣٥

-اذهب معه إنها القاهرة .
- ابنك رجل يعرف كيف يتصرف .
قبله أبوه قبل أن يتحرك القطار ، أخرج ما في جيبه من **الفكة** ووضعها في يده اشتر لنفسك مشروباً يا بني .
بدا متماسكاً وواثقاً .
وجوه متفرقة في فضاء العربة الفسيح ، بعض العوارض الخشبية منزوعة من الكراسي أكثر من نافذة زجاجها محطم - الحصار الإقتصادي ماذا يريد منا هؤلاء الناس ؟- يزداد الارتجاج كلما زادت سرعة القطار ، استند إلى حقيبته المتوسطة الحجم القديمة يتحسس بصدره موضع النقود ، عشرة جنيهات ورقة واحدة خاطتها أمه في قميصه فوق القلب تماماً .
- حاسب من النشالين في مصر ، إنهم يسرقون الكحل من العين .
- لا تتحسس النقود بيدك فيعرفوا مكانها .
عاصفة من الغبار الأصفر الخانق دهمتنا من الشبابيك المحطمة ، دقائق وانفتح الباب الفاصل بين عربات القطار وانشغلت المقاعد كلها .
قال الجالس أمامه افتح النافذة ، لقد عبرنا المنطقة الرملية اللعينة .
..... إنها الخبرة واعتياد السفر ، السفر هذا الوحش الذى ينهش القلب ، لقد سافر وهو في بطن أمه إلى السيد

البدوى وقفت أمام المقام وقالت لو جاء ولداً سيكون السيد وسيزورك ويبوس قدمك .

يتذكر الجامع الكبير والشحاذين والدراويش يقدمون أيديهم للفلاحين يقبلونها بعد أن يضعوا فى حجورهم العطايا ، رأى موضع القدم الكبير خلف الزجاج ، قال زوج عمته كان طويلاً مثل العون يذبح المائه من الكفار بضربة واحدة من سيفه الكبير ثم يبتلع ريقه ويقول لقد رأيته بعينى رأسى اللتين سيأكلهما الدود يخرج من المقام ويمسك الطوربيد الألمانى فى الهواء ثم يضعه برفق بعيداً عن الجامع ، يتذكر ألم أمه وأنينها من الصداع بعد ميلاد أخته الصغرى قالت عجوز من الجيران اذهبى إلى السيد البدوى العجيب أنها تركت الصداع عند المقام وعادت محملة بأكياس الحمصية والسمسمية وحب العزيز.

فى الليل كنت أتعمد كسر الحصان الذى تحضره لى جدتى فى مولد النبى حتى آكله فى الصباح .

- لماذا لا يبيعون حب العزيز فى مولد النبى يا أبى ؟

- حب العزيز فى مولد السيد البدوى .

-هل يستطيع النبى أن يشفى من الصداع ؟

- اسكت يا ولد هذا حرام الشافى هو الله .

- هل يسكن الله عند السيد البدوى ؟

اسكت يا ولد لا تتكلم هكذا هذا حرام ، يفيق على صوت بائع الكازوزة تزداد قبضته انقباضاً على نقود أبيه كلما زاد رنين الفتاحة على الزجاجات المغرية .

إحساس يشبه الرغبة فى هرش الجلد هذه الرغبة فى أن يضع يده على موضع النقود ، يعلل نفسه بالنظر من النافذة .

قال الذى بجواره : نحن الآن فى معسكرات الجلاء كانت للإنجليز قبل أن يطردهم جمال عبد الناصر.

يتذكر (الجولف) والدراجة الرالى السوداء الكبيرة وفتيات يانعات يلوحن له .. يرى وجهاً كبيراً بحجم نافذة القطار ينفلت من بين أعمدة التليفون الهاربة .

****

يخرج من نهر البشر المتزاحمين ، ينفض الغبار عن وجهه وملابسه يخبط قدميه فى الأرض على حافة الرصيف ناظراً إلى حذائه الجديد ينزلق بصره إلى الشريط الحديدى اللامع وسط بقع الزيت السوداء يتتبع الشريط بعينيه فى اتجاه المدينة يدخل فى تلك الشبكة اللعينة من التحويلات ، يرفع وجهه مخترقاً هذا الهواء الساخن المملح .

مكتسية العوارض الحديدية فى هذا السقف العالى بالغبار الرمادى الكثيف ، صخب شديد ، أصوات الباعة والمسافرين ، مكبرات الصوت التى لا يفهم أحد كلامها ، سوق كبير هذه المحطة الحديدية الغبراء .

على باب الخروج من محطة مصر يزفر زفرة شديدة قبل أن ينزل هذه الدرجات القليلة منزلقاً فى فم هذا الوحش الخرافى ... القاهرة .

على سبيل التقديم المتأخر
وليس على سبيل الاعتذار

كنا ثلة من الشعراء ومعنا الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى بعيد قدومه من باريس وقد استسلمنا لوشيش الماء المنكسر على رمال الشاطىء ولهواء الليل المشبع بيود البحر وانطلقت الألسنة فى حميمية أطلقها هذا الحضور الإنسانى الدافىء للشاعر الكبير .

قلت كلاماً عن الجغرافيا هنا وعن نفسى وعن الناس ، سدد حجازى إصبعه نحوى وقال جاداً : أكتب هذا الكلام، قلت: إنما أنا بشاعر قال وهل هناك من فرق ؟

من وقتها وأنا أكتب بين الوقت والآخر بضع صفحات ثم أتوقف لعدم رضاى .

قال إبراهيم أبو حجه يحرضنى على الإستمرار هبه تجميعاً للمادة مجرد تحضير ، ثم قال : هذا كلام يشبه كلام طه حسين فى الأيام، واعتبرت ذلك إطراءً ، أين أنا من طه حسين ؟

حرضنى أيضاً هذا الفرح المتقافز من عينىّ عبد الفتاح البيه.

قال محمد كشيك : الرواية سر كيف تفشى سرك ؟ ألم تقل لك أمك (ربنا يهدى سرك) لقد فعلتُ ما فعلتَ وضاعت روايتى .

قلت للروائى الكبير خيرى شلبى هذه مادة أولية ثم أحاول إيجاد اللغة المناسبة .

قال لى : الرواية تصنع لغتها يا غشيم ، قال كلاماً عن أدب أمريكا اللاتينية وذكر أسماء لكتاب عالميين .. فرحتُ ، قال انتظر - قاتلكم الله أيها الشعراء - هذا التكنيك مجهد إما أن يصنع شيئاً